

كتابى
الحرب والسلام
القصة الخالدة لـ «تولستوى»
الجزء الأول
الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
حلمى مراد



الحرب والسلام

القصة الخالدة لـ «تولستوى»

الجزء الأول

— ١ —

ـ حسناً يا أمير ، إن (جنوا) و(لوكا) لم تعودا سوى ضيعتين خاصتين لآل بونابرت . كلا ! أنا أنذرك بأنك إن لم تقل لى إننا فى حالة حرب ، وإن سمحت لنفسك مرة أخرى بتلمس المعاذير لكل شناعات وفضائح عدو المسيح هذا (وبشرفى أنا أعتقد أنه عدوه !) فلن أعرفك فى المستقبل ، ولن تعود صديقى ، ولا عبدى المخلص كما تقول ! والآن كيف حالك ؟ كيف حالك ؟ أرانى أخفتك . إجلس وتحدث إلى !

تفوهت بهذه الكلمات فى إحدى أمسيات يوليو سنة ١٨٠٥ « أنا بافلوفنا شيرر » سيدة البلاط الراقية ووصيفة الشرف وموضع سر الإمبراطورة « ماريا فيودوروفنا » Maria Fiodorovna وكانت هـذه كلمات ترحيبها بالأمير « فاسيلى » Vassili ذى المقام العالى والمنصب الرفيع ، الذى كان أول الذين وصلوا إلى حفلها الساهر . وكانت « أنا بافلوفنا » تسعل فى الأيام القليلة الماضية ، فقد أصيبت بنزلة برد Grippe ، وكانت هـذه الكلمة بالفرنسية كلمة جديدة لا يستخدمها إلا قلة من الناس. وفى الدعوة التى بعثت بها فى الصباح مع خادم لها يرتدى سترة حمراء قد كتبت للجميع بلا تفرقة :

« إن لم يكن لديك ما تصنعه أفضل من الحضور يا كونت (أو يا أمير) وكان قضاء الأمسية مع مريضة مسكينة ليس مزعجاً

لك ، فسوف يسعدنى أن أراك فى بيتى بين السابعة والعاشرة »

آنيت شيرر

وأجابها الأمير فاسيلى غير مرتبك على الإطلاق من هـذا الاستقبال : « يا إلهى ! يا له من هجوم عنيف ! »

وكان مرتدياً سترة البلاط المطرزة ، بالجورب والخف ، وعلى صدره النجوم ، وعلى وجهه المفرطح ابتسامة مشرقة .

وكان يتحدث بلغة فرنسية منتقاة متقنة ، كان آباؤنا يتكلمون بها ، بل ويفكرون بها أيضاً ، وبتلك النبرات التى تفيض بالتنازل ، وهى اللهجة التى تعودها رجل ذو شأن وأهمية ، تدرج حتى علت به السن فى مجتمع البلاط . واتجه صوب « أنا بافلوفنا » فقبل يدها ، عارضاً على أنظارها بانحنائه منظر صلعته اللامعة المعطرة ، ثم استقر على الأريكة وهو يقول ، من غير أن تتغير نبرة صوته الذى كانت قلة المبالاة ، بل والتهكم ، واضحين فيه من تحت قناع التهذيب والتعاطف :

ـ أولا وقبل كل شىء ، خبرينى كيف حالك يا صديقتى العزيزة ، ولتخففى من قلق صديقك !

فقالت أنا بافلوفنا :

ـ وكيف يمكن للمرء أن يكون بخير وهو يعانى معنوياً ؟ كيف للمرء أن يتجنب القلق فى هذه الأوقات ، مادام لديه أى إحساس؟ أحسبك ستقضى الأمسية كلها معى ، فيما أتمنى ؟

فقال الأمير :

– وحفلة السفير الإنجليزى ؟ اليوم الأربعاء ، ولابد لى من أن أريهم وجهى هناك . ستحضر ابنتى لتأخذنى إلى هناك .

– ظننت حفلة اليوم قد تأجلت ، وأعترف لك أن كل هذه الحفلات والألعاب النارية بدأت تثير فى نفسى السأم .

فقال الأمير ، بحكم العادة ، وفى لهجة آلية ، كمن يقول أشياء لا يطمع حتى فى أن يصدقها السامعون !

– لو عرفوا أن هذا شعورك ، لأجلوا الحفلة .

– لا تثير غيظى ! والآن ماذا تقرر بشأن رسالة « نوفوسيلتزوف » ؟ أنت تعرف كل شىء .

فقال الأمير بنبرة غائرة متوانية :

– وماذا هناك ليقال ؟ ما الذى تقرر ؟ تقرر أن « بونابرت » أحرق مراكبه ، وأحسبنا على وشك إحراق مراكبنا أيضاً .

وكان الأمير « فاسيلى » يتكلم دائماً بتراخ ، مثلما يلقى ممثل دوراً قديماً مكرراً . أما « أنا بافلوفنا شيرر » فكانت رغم تقدمها فى السن على العكس منه تتدفق بالحيوية والحرارة والاندفاع ، وصارت الحماسة طابعها فى المجتمع ، وفى بعض الأحيان – حتى عندما لا تكون راغبة فى ذلك – كانت تتحمس حتى لا تخيب توقعات من يعرفونها . والابتسامة المتكلفة التى تتلاعب باستمرار على وجه أنا بافلوفنا – ولا تتمشى مع سحنتها الذابلة – تعبر عن شعور الطفلة

المدللة بالضعف المحبب الذى لا رغبة لها ولا قدرة على إصلاحه ، بل ولا شعور عندها بأى حاجة إلى إصلاحه !

وفى وسط حديث السياسة ، زادت حماسة « أنا بافلوفنا » جداً ، وقالت :

– أوه ! لا تحدثنى عن النمسا ! أنا ربما لا أعرف شيئاً عنها ، ولكن النمسا لم ترد قط الحرب ، وهى لا تريدها الآن . إنها تخوننا ، وروسيا وحدها يقع على عاتقها إنقاذ أوروبا . وولى نعمتنا يعرف قدره السامى هذا ، وسيضطلع به . هذا هو الشىء الوحيد الذى أومن به . إن إمبراطورنا الطيب المجيد عليه أعظم دور فى العالم لينهض به ، وهو جد عفيف وفاضل ونبيل ، فلن يتخلى عنه الرب ، وسيؤدى رسالته ، وهى قتل التنين – تنين الثورة – الذى صار الآن أخطر ما يمكن فى شخص هذا القاتل السفاح ... فعلى من نعتمد ؟ خبرنى ! أعلى انجلترا بروحها التجارية ؟ إنها لن تفهم ولا يمكن أن تفهم سمو روح الإمبراطور ألكسندر . وها هى قد رفضت الجلاء عن مالطة ، وتفتش عن سر خفى وراء أعمالنا وعن دوافع خسيسة . وماذا قالوا لنوفوسيلتزوف ؟ لا شىء ؟ إنهم لم يفهموا ، فهم عاجزون عن فهم تضحيات إمبراطورنا وإنكاره ذاته ، فهو لا يريد شيئاً لنفسه ، ويريد كل شىء لخير البشرية . وبماذا وعدوا ؟ لا شىء ! بل إن القليل الذى وعدوا به لن ينفذوه ! وها هى بروسيا قد أعلنت أن نابليون لا يقهر ، وأن أوروبا بأسرها لن تستطيع ضده

شيئاً .. وأنا لا أصدق كلمة واحدة مما قاله هاردنبرج أو هاوجويتز .. إن هذا الحياد البروسى الشهير مجرد شرك . ولا ثقة لى إلا بالله وبقدر إمبراطورنا المعبود . إنه سينقذ أوروبا !

وكفت عن الكلام فجأة وعلى محياها ابتسامة تلذذ بحرارتها فى الحديث . فقال الأمير باسماً :

ـ أتخيل أنك لو كنت أنت المبعوثة بدلا من عزيزنا فنتسنجرود لكنت جئتنا بموافقة ملك بروسيا ، بل لجرفتها كالإعصار جرفاً ! لكم أنت بليغة . هل لك أن تقدمى لى شيئاً من الشاى ؟

فاستطردت ، وقد فاءت إلى الهدوء مرة أخرى :

ـ بعد لحظة . وبالمناسبة ، سيكون معنا هنا الليلة ، رجلان يثيران الاهتمام جداً ، « الفيكونت دى مورتمار » Mortemart ، وهو قريب لآل مونمورنسى عن طريق آل روهان ، ومن أسرة من أعرق أسر فرنسا . وهو أحد المهاجرين الصالحين ، الأصلاء . ثم هناك أيضاً الأب « موريو » Morio . أتعرف ذلك المفكر العميق ؟ لقد استقبله الإمبراطور . أتعرفه ؟

فقال الأمير :

ـ سيسعدنى هذا ..

ثم أردف كأنما تذكر شيئاً ما فجأة ، فى نبرة غير المكترث ، مع أن هذا السؤال هو السبب الأساسى للزيارة :

ـ خبرينى ! أصحيح أن الإمبراطورة الوالدة تريد تعيين البارون

« فونكه » Funke سكرتيراً أول فى قنصلية فيينا ؟ إنه مخلوق مسكين ، فيما يبدو .. هذا البارون ..

فقد كان الأمير فاسيلى يتمنى أن يرى ابنه هو يعين فى هذه الوظيفة ، التى كان الناس يحاولون ـ عن طريق الإمبراطورة ماريا فيودوروفنا ـ أن يحصلوا عليها لهذا البارون .

وأغلقت « أنا بافلوفنا » عينيها تمام الإغلاق تقريباً لتقول : إنها لا هى ولا أى مخلوق آخر يمكن أن نحكم على أى تصرف يطيب للإمبراطورة أن ترى الإقدام عليه مناسباً . وكان كل ما قالته بنبرة جافة حزينة :

ـ إن البارون « فونكه » قد أوصت به لدى الإمبراطورة الأم شقيقتها .

وكانت « أنا بافلوفنا » عندما تتكلم عن الإمبراطورة تتخذ سيماها فجأة تعبيراً عميقاً يدل على الولاء والاحترام ، الممزوج بالأسى ، وكان هذا يحدث كلما أشارت فى الحديث إلى مولاتها الجليلة . وقالت أيضاً . إن جلالتها الإمبراطورية طاب لها بكل تنازل أن تبدى للبارون فونكه تقديراً عظيماً ، ومرة أخرى عبرت فوق محياها ظلال الأسى . وظل الأمير محتفظاً بصمته غير المبالى . وشعرت « أنا بافلوفنا » بكياسة اللباقة السريعة التى تمتاز بها سيدة البلاط ، وبوصفها امرأة أيضاً ، بميل إلى معاقبة الأمير لاجترائه على الإشارة بمثل هذه الألفاظ إلى شخص موصى به لدى جلالة

الإمبراطورة ، وفى الوقت نفسه أرادت أن تدخل على نفسه العزاء، فقـالت :

– وماذا عن أسرتك أنت ؟ أتعرف أن ابنتك ، منذ ظهرت فى المجتمع ، تفتن الناس وتخلب ألبابهم ؟ الناس جميعاً يقولون : إنها جميلة كوضح النهار !

فانحنى الأمير انحناءة احترام وعرفان .

واستطردت « أنا بافلوفنا » ، مقتربة من الأمير ومبتسمة له بمودة ، كأنما تريد أن تشعره بأن حديث السياسة والأمور الدنيوية قد انتهى ، وحان أن يبدأ الحديث الحميم :

– كثيراً ما يجرى فى خاطرى أن طيبات الحياة غير موزعة بالعدل والقسطاس فى بعض الأحيان . فلماذا منحك القدر مثل هذين الطفلين الرائعين – ولست أضم إليهما « أناتول » أصغر أبنائك ، فأنا لا أحبه .

وقالت هذه العبارة الأخيرة كمن تصدر حكماً لا استئناف له . وقد رفعت حاجبيها ، وأردفت :

– مثل هذين الطفلين الساحرين ؟ ولا يبدو أنك تقدرهما كما ينبغى ، بل إن تقديرك لهما فى الواقع أقل من تقدير أى إنسـان . ومن ثم فأنت لا تستحقهما !

وافترت عن ابتسامتها النشوانة .

فقـال الأمير :

– وما الحيلة ؟ إن « لافاتر » كان خليقاً أن يقول عنى إنى لم أرزق حاسة الأبوة .

– لا تسترسل فى الدعابة كدأبك ! إنما أردت أن أتحدث إليك حديثاً جاداً . فأنا لست مسرورة من أصغر أبنائك – وبينى وبينك ...

واكتسى محياها بسيما الأسى ، وأردفت :

– إن الناس كانوا يلغطون بالحديث عنه إلى صاحبة الجلالة ويرثون لك ...

ولم يجب الأمير ، ولكنها ظلت تنظر إليه نظرة ذات معنى وهى صامتة انتظاراً لرده . فقطب الأمير فاسيلى ، وأخيراً قال لها بابتسامة أشد تكلفاً وحيوية من المعتاد ، فظهر عليه فى الخطوط التى تحيط بفمه ما يوحى ببهيمية تثير الدهشة :

– وماذا تريديننى أن أصنع ؟ أنت تعلمين أنى بذلت لتربيتهم كل ما فى وسع أب أن يبذله ، وإذا بهما كليهما بشبان أبلهين أما « إيبوليت » فهو على الأقل أبله هادئ ، أما « أناتول » فأبله لا يريد أن يركن للهدوء . وهذا هو كل الفرق بينهما !

فقالت « أنا بافلوفنا » بتأمل ، وهى ترفع عينيها إلى أعلى :

– لماذا يولد أولاد لرجل مثلك ؟ لو لم تكن أباً لما وجدت فيك ما يعاب عليك !

– أنا عبدك المخلص ، ولك وحدك أستطيع أن أعترف بمكنون

صدرى . إن أطفالى هم نقمة حياتى. إنهم صليب لا بد لى أن أحمله . وهذا ما أفسر به الأمر بنفسى . فما الحيلة ؟ ماذا عساى أصنع ؟

وأشار بيده إشارة تعبر عن إذعانه لقضائه وقدره القاسى .

وتفكرت « أنا بافلوفنا » برهة ثم قالت :

– هل فكرت فى تزويج ابنك الضال « أناتول » Anatole ؟ الناس يقولون إن العوانس المسنات لهن ولع كالهوس بتزويج الناس . ولكنى لم أشعر بهذا الضعف من قبل . وفى ذهنى فتاة معينة ، تعيش حياة نكدة جداً مع أبيها ، وهو من أقاربنا . إنها الأميرة الشابة « بلكونسكى » .

ولم يبذل الأمير « فاسيلى » بجواب ، ولكنه بسرعة التفكير والذاكرة التى يتسم بها رجال المجتمع المتمرسون ، أومأ بحركة من رأسه تدل على أنه فهم ما قالته ، وأنه موضع تفكيره . ثم قال ، وقد عجز بلا شك عن كبح تيار خواطره المكتئبة :

– آه ! أتدرين أن هذا الولد يكلفنى أربعين ألف روبل فى السنة ؟ وكم سيكلفنى بعد خمس سنين إن استمر على هذا الحال ؟.. وهذه هى مزايا الأبوة ... أهى غنية ، أميرتك الصغيرة هذه ؟

– والدها غنى جداً وبخيل جداً . وهو يعيش فى الريف . أنت تعرف ذلك الأمير « بلكونسكى » الذائع الصيت ، الذى تقاعد فى عهد الإمبراطور الراحل ، ويلقبونه « الملك البروسى » . وهو رجل بارع جداً ، إلا أنه غريب الأطوار ومضجر . والمسكينة

الصغيرة شقية فى كنفه إلى أقصى حد . وشقيقها هو الذى تزوج أخيراً من «ليز امايتن» Liza meinen ، وهو مساعد « كوتوزوف » وسيكون هنا هذا المساء .

فقال الأمير وقد تناول فجأة يد محدثته ، ولسبب ما راح يثنيها إلى أسفل :

– اسمعى يا عزيزتى « آنيت » Annette . رتبى هـذا الأمر وسأكون عبـدك المخلص إلى أبد الآبدين . إنها من أسرة طيبـة وميسورة الحال . وهذا كل ما أبغى .

وبكل الحرية ، والألفة ، واللباقة التى تميزه ، تناول يد وصيفة الشرف ولثمها ، وفيما هو يلثم يدها راح يهزها ، وهو يتمطى فى مقعده المنخفض وينظر إلى بعيد فى الفضاء .

وقالت « أنا بافلوفنا » متفكرة :

– انتظر ! سأتحدث إلى ليز (زوجة بلكونسكى الشاب) هذه الليلة بالذات . وقد يتسنى ترتيب الأمر . وسأدرب يدى المبتدئة فى صنعة الخاطبة – أنا العانس العجوز – فى أسرتك أنت .

– ٢ –

بدأت قاعة جلوس « أنا بافلوفنا » تغص بالزائرين تدريجاً ، فكان بها أرق أهل بطرسبرج الممتازين ، وهم خليط متباين الأعمار والطباع ، ولكنهم متماثلون فى الفلك الذى يتحركون فيه . وحضرت ابنة الأمير فاسيلى رائعة الجمال « إلين » Elen لتأخذ أباها للذهاب

إلى حفلة السفير الإنجليزى . وكانت ترتدى ثوباً للرقص عليه شارة إمبراطورية . وكانت الأميرة « بلكونسكى » الشابة هناك ، وهى المشهورة بأنها أفتن امرأة فى بطرسبرج . وكانت قد زفت فى الشتاء الماضى ولاتظهر حالياً فى المجتمع الراقى بسبب « حالتها الخاصة » ، ولكنها لم تزل تشاهد فى الحفلات الصغيرة . وحضر أيضاً الأمير « إيبوليت » ، نجل الأمير فاسيلى ، مع مورتيمار وتولى تقديمه . وكان هناك الأب « موريو » أيضاً ، وكثيرون آخرون .

وقالت « أنا بافلوفنا » لضيوفها كلما حضر منهم أحد :

– ألم تروا بعد ، أو لم يسبق تقديمكم إلى عمتى ؟

وبكل جد تقودهم إلى سيدة ضئيلة عجوز ترتدى أنشوطات عالية ، دخلت كالسفينة التى تتهادى من الحجرة المجاورة بمجرد أن بدأ الضيوف فى التوافد . وذكرت « أنا بافلوفنا » أسماء القادمين ، وهى تدير عينيها بأناة من الضيوف إلى « عمتى » ، ثم تنسحب . وكان كل الضيوف يقومون بتحية العمة ، التى كانت مجهولة ، ولا لزوم لها ، ولا أهمية أو طرافة لأى أحد منهم . وكانت « أنا بافلوفنا » ترقب هذه التحيات بعطف حزين جاد ، مبدية الرضا عنها فى صمت . وكانت « عمتى » تقول لكل شخص منهم نفس الكلمات عن صحته ، وعن صحتها ، وصحة صاحبة الجلالة ، التى كانت – ولله الحمد – أحسن فى ذلك اليوم . وكان كل واحد لا يتعجل الانصراف تأدباً ، ثم ينسحب من أمام السيدة العجوز

متنفساً الصعداء بعد أداء هذا الواجب المجهد الممل ، ولا يقربها مرة أخرى حتى نهاية الأمسية . وكانت الأميرة « بلكونسكى » الشابة قد حضرت ومعها أشغال إبرتها فى حقيبة من المخمل مطرزة بالذهب . وشفتها العليا الجميلة الصغيرة مسمرة بعض الشىء بالزغب الناعم ، وهذه الشفة العليا قصيرة تكشف عن أسنانها ، ولكنها بارتفاعها هذا تزيدها فتنة على فتنة ، وتزداد فتنتها شوطاً آخر عندما تتدلى هذه الشفة العليا أحياناً لتلتقى بالشفة السفلى . وكما هو الحال دائماً لدى النساء الفاتنات كان عيبها هذا – وهو قصر شفتها العليا وفمها نصف المفتوح – يكسبها ملاحة خاصة مميزة . فكان كل واحد يسعده أن يرقب المخلوقة الجميلة الملآنة بالحياة والمرح ، التى ستكون أماً بعد قليل جداً ، ويعجبون بخفة حركتها رغم حملها . والمسنون والشبان السأمانون المكتئبون كانت تسرى إليهم عدوى حيويتها ومرحها حين ينظرون إليها وكأنما صاروا مثلها بوجودهم معها والتحدث إليها هنيهة قصيرة . وأى رجل يتحدث إليها ، ومع كل كلمة يرى ابتسامتها الصغيرة المشرقة وأسنانها البيضاء اللامعة التى تتلألأ دواماً ، يخيل إليه أنه ظفر بفوز مبين فى ليلته هذه . وهذا ما كان يظنه كل واحد فى دوره .

وكانت الأميرة الصغيرة تتحرك وهى تمشى حركة متمايلة بعض الشىء ، بخطوات قصيرة سريعة حول المائدة وحقيبة شغلها فى يدها ، وترتب فى مرح ثنايا ثوبها ، ثم جلست على الأريكة قرب

السيموفار الفضى ، وخيل للناظرين أن كل ما تصنعه مهرجان احتفالى لها ولكل من حولها .

وقالت ملوِّحة بحقيبتها الصغيرة مخاطبة الحاضرين عموماً :

– لقد أحضرت شغلى معى ..

والتفتت إلى ربة البيت قائلة :

– حذار يا أنيت أن تلعبى علىّ ملعوباً قذراً . ولكنك كتبت تقولين : إنه جمع صغير . وها أنت ترين حالى .

وفتحت ذراعيها ليرى الناس ثوبها الأنيق الرمادى المزين بالدانتلا ، ويحيط به من تحت الصدر نطاق عريض ، فقالت لها « أنا بافلوفنا » :

– لا ضير يا ليز . ستكونين دائماً أجمل من أى أحد .

فمضت ليز تتحدث بنفس هذا الصوت ، مخاطبة أحد الجنرالات :

– أنت تعلم أن زوجى مزمع أن يهجرنى ، ذاهب هو حيث يقتلونه . فخبرنى فيم هذه الحرب القذرة ؟

والتفتت توجه الحديث إلى ابنة الأمير فاسيلى الحسناء إلين من غير أن تنتظر جواباً من الجنرال . فقال الأمير فاسيلى بصوت خافت لأنا بافلوفنا :

– ألا ما أجمل هذه الأميرة الصغيرة !

وبعد الأميرة الصغيرة ، سرعان ما دخل شاب بدين متين

البنيان يلبس نظارة ، حليق الرأس ، وسرواله خفيف على موضة ذلك العهد ، وحول عنقه طوق عال من الدنتلا ، وسترته بلون الزنجبيل . وهذا الرجل البدين كان الابن غير الشرعى لأحدالوجهاء ، كان غندوراً مرموقاً فى عهد الإمبراطورة كاترين ، وهو الكونت «بيزوهوف» Bezuhov ، الذى يرقد الآن يعالج سكرات الموت فى موسكو . وهذا الشاب لم يدخل بعد أى فرع من فروع خدمة الحكومة ، فهو عائد لتوه من الخارج ، حيث كان يتلقى تعليمه . وكانت هذه أول مرة يظهر فيها فى المجتمع الراق ، واستقبلته « أنا بافلوفنا » بإيماءة من رأسها تخص بها من هم فى أدنى الدرجات بين رواد حجرة استقبالها . ولكن سحنة « أنا بافلوفنا » ، برغم هذا الاستقبال الفاتر ، ظهرت عليها عند رؤية « بيير » Pierre علائم عدم الارتياح والذعر ، كتلك الإمارات التى تبدو على المرء عند رؤية شىء أضخم مما ينبغى بحيث ينبو به المكان . ومع أن حجم بيير كان يقيناً أكبر من حجم أى شخص آخر فى القاعة ، إلا أن هذه الإمارات كانت متعلقة بالنظرة النفاذة الحيية فى الوقت نفسه التى تنبعث بصورة طبيعية من محياه فتميزه عن كل من عداه فى القاعة .

وقالت له « أنا بافلوفنا » ، وهى تتبادل نظرات القلق مع عمتها التى كانت تقوده إليها :

– إنه لكرم منك يابيير أن تجشم نفسك الحضور لترى عليلة مسكينة .

فتمتم « بيير » بشيء غير مفهوم ، وواصل البحث بعينيه عن شيء ما ، ونظر في جذل وسعادة وانحنى للأميرة الصغيرة كأنما هي صديقة حميمة ، واتجه صوب العمة . ولم يكن ارتياع «أنا بافلوفنا» بغير داع ، لأن بيير انصرف عن العمة قبل نهاية ملاحظاتها عن صحة صاحبة الجلالة ، واستوقفته « أنا بافلوفنا » في فزع قائلة له :

— ألا تعرف الأب موريو ؟ إنه رجل شائق جداً .

— أوه . لقد سمعت بمشروعه للسلام الدائم ، وهو مشروع شائق جداً ، ولكنه يكاد يكون غير ممكن .

فقالت « أنا بافلوفنا » ، لمجرد أن تقول شيئاً ما ، ثم تعود إلى واجبها كمضيفة :

— أتظن هذا ؟

ولكن « بيير » ارتكب الغلطة المضادة لكل تهذيب ، إذ غادر محدثته العجوز أولا بدون إصغاء لما كانت تقوله له ، وها هو يستبقي ربة البيت الآن وهي تهم بتركه ، وبرأس منحن ، وساقين متباعدتين بدأ يشرح لأنا بافلوفنا لماذا يعتقد أن مشروع الأب « موريو » حديث خرافة ، فقالت « أنا بافلوفنا » باسمة :

— سنتحدث عن هذا فيما بعد .

وهكذا تخلصت من هذا الشاب غير اللبق وعادت إلى واجباتها ، محتفظة بعينيها وأذنيها مفتوحة على سعتها ، كي تخف للنجدة في أي ركن أو حلقة يركد فيها الحديث . وعلى نحو ما يقر رئيس العمال



فتمتم « بيير » بشيء غير مفهوم ، وواصل البحث بعينيه عن شيء ما ..

كل عامل فى المصنع فى مكانه ، ويذرع الورش جيئة وذهاباً ويفطن لأى توقف أو صرير غير مألوف أو هدير أعلى مما يجب فى المغازل ، فيخف إلى هناك ويوقف الآلة ثم يصلحها كما ينبغى ، كذلك كانت « أنا بافلوفنا » تتمشى فى قاعة استقبالها ، وتتجه إلى أى حلقة تتوقف عن الحديث أو يعلو صوتها بها أكثر مما ينبغى وبكلمة واحدة أو تغيير فى الموقف تجعل آلة الحديث تسير على ما يرام فى مسارها المنتظم اللائق . ولكن فى معمعان هذه المهام كانت « أنا بافلوفنا » قلقة بنوع خاص بسبب بيير ، وكان هذا القلق بادياً عليها ، فظلت تلحظه بعين يقظة وهى تراه يمضى ليصغى إلى ما كان يقال قرب مورتيمار ، ثم ينصرف إلى جماعة أخرى كان الأب موريو يتحدث فيها . وكان بيير قد تعلم فى الخارج ، وهذا الحفل فى قصر « أنا بافلوفنا » هوأول جمع يشهده فى روسيا . وكان يعرف أن كل مثقفى ومفكرى بطرسبرج مجتمعون ها هنا ، فكانت عيناه تجوسان بينهم كعينى طفل فى متجر للعب والدمى ، ويشعر بالخوف فى كل لحظة من أن يفوته شىء من الحديث الثقافى الذى يمكن أن يسمعه . وهو إذ ينظر إلى سحنهم وما يبدو عليها من ثقة بالنفس ورهافة يتوقع دائماً أن يسمع منهم شيئاً خارق البراعة . وأخيراً اتجه إلى الأب موريو ، وبدت له المحادثة شائقة ، ووقف ساكناً ينتظر فرصة كى يعبر عن أفكاره ، شأن الشبان وولعهم بالإعراب عن وجهات نظرهم .

- ٣ -

كانت سهرة « أنا بافلوفنا » فى ذروتها ، والمغازل ماضية فى هديرها الخافت المنتظم فى جميع الجوانب بلا توقف ، ما عدا العمة التى لم يكن أحد جالساً بجوارها سوى عجوز ذات وجه نحيل أثقله الهم ، كان بادياً عليها أنها فى غير محيطها الطبيعى فى هذا المجتمع المتألق الذى انقسم فيه الحاضرون إلى ثلاث حلقات . وفى إحدى هذه الحلقات ، وهى أكثرها ذكورة كان مركزها هو الأب موريو ، وفى حلقة أخرى جماعة من الشباب ، كانت واسطة عقدها الأميرة الحسناء إلين ، ابنة الأمير فاسيلى ، والأميرة الصغيرة بلكونسكى بجمالها الوردى ، ممتلئة الجسم بالنسبة لسنها الصغيرة ، وفى حلقة ثالثة مورتيمار وأنا بافلوفنا .

وكان الفيكونت مورتيمار سيداً شاباً له ملامح ناعمة وسلوك ناعم أيضاً ، وكان بلا شك ينظر إلى نفسه على أنه من المشاهير ، ولكنه بتهذيب تربيته الحسنة يسمح للحاضرين بالاستمتاع بصحبته وكانت أنا بافلوفنا ترى فيه بلا شك أمتع ما تتيحه لضيوفها فى سهرتها هذه . وعلى نحو ما يقدم كبير السقاة البارع شيئاً ممتازاً جداً من لحم البقر يبدو شهياً ، وما كان أحد ليشتهيه لو رآه فى المطبخ القذر ، كذلك قدمت — بكل البراعة — أنا بافلوفنا إلى ضيوفها الفيكونت أولا ، ثم الأب موريو ثانياً ، على أنهما شيئان فائقان حقاً . وفى حلقة الفيكونت مورتيمار دار الحديث فوراً حول إعدام

الدوق دانجيان . فقال الفيكونت : إن الذى أضاع الدوق دانجيان
هو شهامته وإنه كانت لدى بونابرت أسباب خاصة للحقد عليه .
فقالت أنا بافلوفنا فى جذل فى عبارة فرنسية خيل إليها أنها تحمل
طابع لويس الخامس عشر :

ـ آه ! حدثنا إذن عن هذا يا فيكونت !

فأحنى الفيكونت قامته وابتسم بأدب إيذاناً بامتثاله لرغبتها .
وقامت أنا بافلوفنا بدورة وجمعت حلقة أكبر حول الفيكونت ،
ودعت كل واحد لسماع القصة . وهمست لأحدهم :

ـ لقد كان الفيكونت على معرفة شخصية بصاحب السمو .

وقالت لآخر :

ـ الفيكونت بارع فى السرد .

وقالت لثالث :

ـ سيماهم على وجوهم ! هكذا دائماً أبناء الأكابر !

وهكذا قدم الفيكونت إلى الجمع المحتشد فى أبهى وآنق ضوء
ممكن ، وكأنه قطعة لحم البقر المشوى على طبق ساخن مزين
بالمقدونس الأخضر .

وكان الفيكونت على وشك الشروع فى قصته ، وهو يبتسم
برقة ، عندما قالت أنا بافلوفنا للحسناء الشابة التى كانت جالسة
بعيداً بعض الشىء ، وقد أحاطت بها حلقة أخرى :

ـ تعالى هنا يا عزيزتى إلين !

فابتسمت الأميرة « إلين » ، ونهضت بنفس ابتسامة الحسناء
المتوجة التى دخلت بها قاعة الاستقبال ، وثوب رقصها الأبيض
المطرز بنباتات خضراء كاللبلاب والطحلب له هسيس خفيف ،
ومنه يبرز جيدها الأتلع وكتفاها الناصعتان وشعرها اللامع يتوج
محياها ، وألماساتها تتلألأ وهى تمر وسط الرجال الذين أفسحوا لها
الطريق . وهى لا تنظر إلى أحد ، ولكنها تبتسم لكل أحد ، كأنما
تسمح للجميع أن يعجبوا بجمالها وقوامها واستدارة كتفيها وصدرها
وظهرها ، التى كانت كلها عارية تتناهبها العيون على موضة ذلك
العهد ، واتجهت صوب أنا بافلوفنا وكأنها أتت معها بكل رونق
قاعة الرقص . وكانت فى عذوبتها خالية من كل غنج ، بل تبدو
على العكس خجلانة من سطوع جمالها وسيطرته الطاغية على كل
الألباب . وكأنها لا تتمنى شيئاً سوى التخفيف ـ لو أمكن ـ من
تأثير جمالها . وكان الجميع يقولون عندما تقع أنظارهم عليها :

ـ يا لها من امرأة جميلة !

وكأنما ووجه الفيكونت بشىء خارق ، فهز كتفيه وأسبل
عينيه عندما اتخذت مجلسها بقربه وأزاغت بصره بابتسامتها المتألقة
فقال وهو ينحنى بابتسامة :

ـ سيدتى ! إنى أشك فى قدراتى أمام مثل هذا الجمع المستمع !

فاتكأت الأميرة بذراعها العارية على المنضدة ولم تجد ضرورة
لقول أى شىء . وانتظرت باسمة . وظلت طوال قصة الفيكونت

جالسة منتصبة القامة ، ناظرة بين الحين والحين إلى ذراعها البضة فى وضعها الساكن على المنضدة ، ثم إلى صدرها الأجمل والأبدع ، لتسوى قلادتها الألماسية ، وسوت عدة مرات ثنايا ثوبها ، وعندما أحدثت القصة أثرها المثير فى السامعين ، نظرت إلى « أنا بافلوفنا » وعلى الفور حاكت ما رأته على محيا وصيفة الشرف ، ثم عادت مرة أخرى إلى ابتسامتها الثابتة التى لا تتغير . وابتعدت الأميرة بولكونسكى الصغيرة أيضاً عن مائدة الشاى . وتبعت هيلين قائلة :

– انتظرينى ! سآخذ شغلى .

وقالت للأمير « إيبوليت » :

– فيم تفكر ؟ ناولنى حقيبتى الصغيرة .

وغيرت الأميرة الصغيرة وضعها وهى تتكلم وتبتسم للجميع ، ثم استقرت ثانية وسوت ذيل ثوبها بمرح وقالت :

– الآن أنا مستريحة !

ثم رجت الفيكونت أن يبدأ فى السرد ، وتناولت شغلها ، وكان الأمير إيبوليت قد أتاها بحقيبتها، وانتقل إليها ، وانحنى فوق كرسيها ، ثم جلس بجوارها ، وكان « إيبوليت الفاتن » قد لفت أنظار الجميع بشبهه الخارق بأخته إلين ، ومع ذلك الشبه القوى كان يبدو للجميع مفرط القبح ! أجل إن ملامحه مثل ملامح أخته، ولكن كل شىء فيها كان متألقاً بالحياة وأفراحها ، ولها ابتسامة لطيفة لا تغيب عن محياها تفيض شباباً ، ولها قوام بديع كقوام

التماثيل اليونانية . أما وجه الأخ فكان على العكس مخيمة عليه البلاهة ، ومسحة من القلق العدوانى ، وقامته نحيفة ، وبنيته هزيلة، وعيناه ، وأنفه ، وفمه وكل شىء فيه منغمض فى تكشيرة فارغة تدل على السأم ، أما ذراعاه وساقاه فلها أوضاع غريبة مبتذلة .

وقال الأمير إيبوليت وهو يجلس بجوار الأميرة ويثبت نظارته على عينه وكأنه لا يستطيع الكلام بدونها :

– إنها ليست قصة أشباح !

فقال الفيكونت مندهشاً ، وهو يهز كتفيه :

– وى : بالطبع لا يا صاح !

فقال الأمير إيبوليت بلهجة من يتفوه بالكلام قبل أن يتنبه لمعناه :

– لأننى فى الحقيقة أمقت قصص الأشباح !

ومن الثقة بالنفس التى كان يتكلم بها لم يستطع أحد أن يعرف هل ما قاله شديد البراعة أم شديد الغباء . وكان مرتدياً سترة فراك خضراء داكنة، وجورباً وخفين ، وسرواله من نفس لون السترة، وشديد الالتصاق بفخذيه ، من الطراز المسمى « بفخذ الحورية المذعورة » . وروى الفيكونت بكل ظرف النادرة التى كانت شائعة فى ذلك الحين ، وهى أن الدوق دانجيان كان قد زار باريس سراً ليلتقى بالممثلة « مدموازيل جورج » ، وأنه هناك قابل « نابليون بونابرت » ، الذى كان ينعم أيضاً بالحظوة لدى الممثلة

الشهيرة ، ولما قابل نابليون الدوق أصيب نابليون بإحدى نوباته وصار تحت رحمة الدوق تماماً ، وذكر لهم كيف أن الدوق لم يستغل هذا الظرف ، وأن بونابرت جزاه على شهامته بقتله .

وكانت القصة بديعة جداً وشائقة ، ولا سيما عندما عرف الخصمان المتنافسان كل منهما الآخر ، وبدا على السيدات أنها استثارتهن بشدة . وقالت أنا بافلوفنا ، وهى تنظر نظرة استفهام نحو الأميرة الصغيرة :

– رائع !

فهمست الأميرة الصغيرة وهى تغرس إبرتها فى شغلها إيذاناً بأن تشويق القصة وسحرها منعاها من العمل :

– رائع حقاً !

وقدر لها الفيكونت هذا التقدير الصامت ، وابتسم فى عرفان ، واستأنف سرد قصته ، ولكن أنا بافلوفنا كانت فى الوقت نفسه ترقب تصرفات الشاب البشعة ، فلاحظت أنه يتكلم بصوت شديد الارتفاع والحرارة مع الأب موريو ، فأسرعت من فورها إلى موضع الخطر . وكان بيير فى الواقع قد نجح فى الدخول فى حديث سياسى مع الأب موريو عن توازن القوى . وسر الأب بطبيعة الحال وشاقته الحماسة المنبعثة من بساطة القلب لدى هذا الشاب ، فراح يبسط له فكرته الأثيرة ، وكانا كلاهما يصغيان ويتكلمان بكل

لهفة وبصورة طبيعية ، وهذا ما لم تكن تحبه « أنا بافلوفنا » .

وقال الأب :

– تسألنى عن الوسائل ؟ إنها توازن القوى فى أوروبا وحقوق الشعب . فدولة قوية مثل روسيا – بما لها من مهابة وسمعة بالبربرية – لا حاجة بها إلا إلى وقفة لا تحيز فيها على رأس التحالف الذى يرمى إلى كفالة توازن القوى فى أوروبا ، وبذلك تنقذ العالم .

وبدأ بيير يرد عليه قائلا :

– وكيف تحصل على مثل هذا التوازن فى القوى ؟

وإذا بأنا بافلوفنا فى هذه اللحظة تهبط عليهما وتنظر بشدة إلى بيير ، ثم تسأل الإيطالى عن مدى تحمله للطقس . وفى الحال تغير وجه الأب واكتسى بالعذوبة الممزوجة بالعدوانية ، التى لا شك أنها كانت طريقته المعتادة عندما يتحدث إلى النساء :

– إننى مسحور بذكاء وثقافة المجتمع – ولا سيما السيدات – اللواتى تفضلن باستقبالى ، بحيث لم يتسع أمامى الوقت بعد للتفكير فى الطقس .

ولم تفلت « أنا بافلوفنا » الأب وبيير من براثنها ، وأخذاً بالأضمن لها فى حسن مراقبتهما ، جعلتهما ينضمان للحلقة الكبيرة .

وفى هذه اللحظة دخل القاعة ضيف آخر ، كان هو الأمير الشاب أندريه بلكونسكى ، زوج الأميرة الصغيرة . وكان الأمير بلكونسكى شاباً وسيماً جداً ، متوسط الطول ، له ملامح دقيقة

واضحة القسمات . وكل شيء فى منظره ، من محياه الذى يرتسم عليه الملل والإعياء ، إلى خطواته البطيئة المعتدلة ، يوحى بالمفارقة بينه وبين زوجته الصغيرة المتوقدة الدافقة الحيوية والمرح . وجلى أن كل الموجودين فى القاعة كانوا مألوفين له ، وفضلا عن هذا كان هو يشعر بسأم واضح منهم ، حتى أن النظر إليهم أو الإصغاء لهم كان يجهده ويشعره بالإعياء . وكان أشد ما يسئمه من وجوههم وجه زوجته الجميلة فيما يبدو . وبالتواء علا وجهه الوسيم أشاح عنها ، ولثم يد « أنا بافلوفنا » ، وتفحص الحاضرين جميعاً بأجفان نصف مطبقة .

وقالت له « أنا بافلوفنا » :

– هل تطوعت للحرب يا سمو الأمير ؟

فقال « بلكونسكى » :

– لقد تلطف الجنرال « كتوزوف » Kutuzov ووقع اختياره علىّ لأكون أركان حربه .

– وليز ، زوجتك ؟

– ستذهب للإقامة فى الريف .

– أليس هذا عملا سيئاً منك ، أن تسلبنا المتعة بزوجتك الفاتنة؟

وقالت زوجته ، مخاطبة زوجها بنفس لهجة الدلال التى تكلم بها الغرباء :

– « أندريه » ! لقد روى لنا الفيكونت الآن قصة لطيفة عن مدموازيل جورج وبونابرت !

فعبس الأمير أندريه وأشاح عنها . وكان بيير قد ثبت نظره عليه منذ دخل ، فذهب إليه وأمسكه من ذراعه . ومن غير أن يلتفت أندريه بدا على وجهه الضيق ، شأنه كلما لمسه أحد ، ولكنه ما أن رأى وجه بيير الباسم حتى منحه ابتسامة كانت عذوبتها ولطافتها غير متوقعتين ، وقال له :

– أهذا أنت ؟... وفى مثل هذا المجتمع أيضاً ؟...

فأجابه بيير :

– كنت أعلم أنك ستكون هنا ، وسأحضر للعشاء معك .

قال له هذه العبارة الأخيرة همساً ، حتى لا يقاطع الفيكونت الذى كان لم يزل مسترسلا فى الحديث ، ثم أردف :

– أيمكننى أن آتى ؟

فقال أندريه بلكونسكى ضاحكاً وهو يضغط على يده بما معناه أنه لا حاجة به للسؤال :

– لا ، لا يمكن !

وكان على وشك أن يقول شيئاً آخر ، ولكن فى هذه اللحظة نهض الأمير فاسيلى وابنته ، فنهض الشابان كى يفسحا لهما الطريق . فقال الأمير فاسيلى بالفرنسية للفيكونت وهو يجذبه بلطف من كمه كى يمنعه من النهوض من مقعده :

– عفواً يا عزيزى الفيكونت ! هذا الحفل فى بيت السفير يحرمنى من لذة سماعك ويضطرنى لمقاطعة حديثك .

وقال لأنا بافلوفنا :

– يؤسفنى أن أترك حفلك الساحر .

ومرت ابنة الأميرة إلين من بين المقاعد وهى رافعة ثنايا ثوبها الطويل ، وقد زادت الابتسامة التى على وجهها تألقاً ، وتطلع إليها بيير بافتتان ، بل بنظرة شبه مروعة مذعورة إلى هذه المخلوقة البديعة الحسن وهى تمر أمامهما . فقال الأمير أندريه :

– إنها جميلة جداً .

فقال بيير :

– جداً !

وعندما اقترب منهما الأمير فاسيلى أخذ بيير من ذراعه وقال لأنا بافلوفنا :

– هذبى لى هذا الدب ! فله معى شهر الآن وهذه أول مرة أراه فى المجتمع ، فلا شيء ألزم لشاب من الاختلاط بنساء المجتمع البارعات الماهرات .

– ٤ –

وابتسمت « أنا بافلوفنا » ووعدته بالعناية ببيير ، الذى كانت تعلم أنه يمت بقرابة إلى الأمير فاسيلى من جهة أبيه . وفى هذه اللحظة نهضت السيدة المسنة التى كانت حتى هذه اللحظة جالسة مع

العمة ، وبسرعة لحقت بالأمير فاسيلى فى البهو ، وزال من وجهها كل ما كانت تفتعله ، ولم يعد يعبر إلا عن القلق والذعر ، وقالت للأمير :

– ماذا عندك لتقوله لى يا أمير عن ابنى بوريس؟ أنا لا أستطيع البقاء أكثر من هذا فى بطرسبرج ، فقل لى ما هى الأنباء التى يمكن أن أحملها إلى ولدى المسكين ؟

ومع أن الأمير فاسيلى أصغى على مضض وبصورة تكاد تخلو من التهذيب لما قالته السيدة المسنة ، بل وأبدى نفاد صبره ، إلا أنها رمقته بنظرة تملق وابتسامة توسل ، ولكى تمنعه من الانصراف أمسكت بذراعه وراحت تناشده قائلة :

– أمر يسير عليك أن تقول كلمة للإمبراطور فينقل ولدى على الفور إلى الحرس .

فأجابها الأمير فاسيلى :

– صدقينى يا أميرة إنى سأفعل كل ما فى وسعى ، ولكن ليس من السهل على أن ألتمس ذلك من الإمبراطور ، ولذا أنصحك بالالتجاء إلى «روميانتسيف» Rumyantsev ، عن طريق الأمير « جوليتسين » Golitsyn . فهذه أحصف طريقة .

وكانت هذه السيدة المسنة هى الأميرة « دروبتسكوى » ، من أسرة من أحسن أسر روسيا ، ولكنها كانت فقيرة ، ولذا ظلت أمداً طويلا بعيدة عن المجتمع الراقى ، وفقدت بذلك الاتصالات التى

كانت لها . وقد جاءت الآن لتحاول الوصول إلى تعيين ابنها الوحيد فى الحرس القيصرى . وقد دعت نفسها لحفلة أنا بافلوفنا خصيصاً لتلتقى بالأمير فاسيلى . وفى سبيل ذلك تحملت الإصغاء كل هذا الوقت لقصة الفيكونت . وذعرت من كلام الأمير فاسيلى ، وظهر على محياها — الذى كان جميلا فيما مضى — كل السخط ، ولكن ذلك لم يدم إلا لحظة ، وابتسمت مرة أخرى وقبضت على ذراع الأمير فاسيلى بمزيد من الشدة ، وقالت :

— أصغ لما سأقوله يا أمير . أنا لم أطلب منك مكرمة من قبل، ولن أسألك مكرمة بعد ذلك . ولم أذكرك قط بحب والدى وإعزازه لك ، ولكنى الآن أناشدك ، بحق الله ، أن تحقق هذا الرجاء لابنى ، وسأعدك ولى نعمتى الأكبر .

وأردفت على عجل :

— كلا . لا تغضب . ولكن عدنى ! لقد طلبت من جوليتسين قرفض ، فكن عطوفاً كدأبك دائماً ...

وحاولت أن تبتسم وإن كانت الدموع فى عينيها . وقالت إلى أبيها ، ملتفتة برأسها البديع فوق كتفيها الرائعتين وهى منتظرة بالباب :

— لقد تأخرنا يا بابا .

ولكن النفوذ فى الدنيا رأس مال ، لا بد من حراسته والمحافظة عليه وإلا زال . وكان الأمير فاسيلى يعرف هذا ، ويعرف أنه

لو توسل من أجل كل من يرجوه أن يتوسل له ، لامتنع عليه أن يجد متسعاً كى يتوسل لنفسه ، ولذا كان نادراً جداً ما يستخدم نفوذه . أما فى حالة الأميرة « دروبتسكوى » فقد شعر بعد توسلها الجديد بشىء شبيه بوخز الضمير ، لأنها ذكرته بالحقيقة . فأول خطوة له فى مراقى الخدمة كان مديناً بها لوالدها . يضاف إلى هذا أنه رأى من حالها أنها واحدة من أولئك النساء — ولاسيما الأمهات — اللواتى متى قامت برءوسهن فكرة ، فلن ينزلن عنها إلى أن تتحقق، وحتى ذلك الحين لن يتوانين فى الإلحاح كل يوم ، بل ومستعدات للشجار أيضاً ! وهذا الاعتبار الأخير جعله يتردد ، ثم قال وفى صوته مودة الألفة والضجر فى آن واحد كالعادة :

— عزيزتى « أنا ميهالوفنا » Anna Mihalovna يكاد يكون مستحيلا على أن أصنع ما ترغبين فيه ، ولكن لكى أظهر ولائى وتعلقى بك ، وإجلالى لذكرى والدك ، سأفعل المستحيل . وسينقل ابنك إلى الحرس القيصرى . وهذه يدى تأكيداً لوعدى . أراضية أنت ؟

— يا عزيزى الأمير ، أنت ولى نعمتنا ، ولم أكن أتوقع منك أقل من هذا ، فأنا أعرف طيبتك ...

وحاول الانصراف ، فقالت بسرعة :

— انتظر لحظة . كلمة واحدة . ومتى عين فى الحرس ؟

وترددت قليلا ثم أردفت :

– أنت على صلة طيبة بميخائيل إيلاريونوفتش كوتوزوف . فلتزكى لديه بوريس ليجعله أركان حربه ، وعندئذ يستريح قلبى ، يستريح حقاً ...

فابتسم الأمير فاسيلى وقال :

– أما هذا فلا أستطيع أن أعدك به . فأنت لا تدرين مبلغ الضغط والحصار الذى يعانيه كوتوزوف منذ تعيينه قائداً عاماً ، وهو نفسه قال لى إن كل سيدات موسكو متآمرات عليه ليجعل من كل ذراريهن أركان حرب له .

– بل عدنى ! لا أستطيع أن أتركك تنصرف يا صديقى الطيب وولى نعمتى ما لم ...

وكررت الحسناء كلامها من فرجة الباب :

– لقد تأخرنا يا بابا .

– وداعاً يا أميرة . ها أنت ترين الموقف .

– أغداً إذن ستكلم الإمبراطور ؟

– يقيناً . أما عن كوتوزوف فلا أستطيع أن أعدك .

فقالت أنا ميهالوفنا وهى تتعقبه بابتسامة فتاة ذات دل لم تعد تلائم وجهها المضنى :

– بل عدنى . عدنى يا باسيل !

وواضح أنها فى فورة الرجاء نسيت عمرها وبحكم العادة راحت تستخدم كل أسلحة أنوثتها . ولكن ما أن انصرف حتى استعاد

وجهها تعبيره الجامد المفتعل الذى اكتسى به طول الأمسية . وعادت إلى الجماعة التى كان الفيكونت ما يزال يتكلم فيها ، وتصنعت الإصغاء ، فى انتظار اللحظة المناسبة للانصراف بعد بلوغ هدفها .

وقالت أنا بافلوفنا :

– وما رأيك فى هذه المهزلة الأخيرة ، مهزلة التتويج فى ميلانو ؟ والكوميديا الجديدة ، كوميديا حضور شعب لوكا وجنوا لتقديم التماساتهم للمسيو بونابرت ، ومسيو بونابرت جالس فوق عرش وهو يلبى التماسات الشعوب ! رائع ! هذا شىء يطيش له الصواب ! لكأنما فقد العالم كله عقله !

وابتسم الأمير أندريه بتهكم ، وهو ينظر فى وجه أنا بافلوفنا . ثم قال :

– « إن الله أعطانيه ، وليحذر البشر من المساس به ! » (كانت هذه كلمات بونابرت لحظة التتويج) . ويقال : إنه كان رائعاً وهو يتفوه بهذه الكلمات .

ثم قال أندريه عبارة نابليون بالإيطالية ، فاستطردت أنا بافلوفنا قائلة :

– أتمنى أن تكون هذه هى القطرة التى تجعل الإناء يطفح . حقاً طفح الكيل ! إن الملوك لن يستطيعوا أن يتحملوا هذا الرجل الذى يهدد وجوده كل شىء !

فقال الفيكونت باحترام ولكن بقنوط :

– الملوك ! الملوك يا سيدتى ! – أنا لا أتكلم عن روسيا – وماذا ترينهم صنعوا للويس السادس عشر وللملكة ، ولمدام اليزابث؟ لا شىء .

واستطرد فى حميا الانفعال :

– لا شىء ! وصدقينى إنهم الآن يتلقون العقاب جزاء وفاقاً لخيانتهم قضية «آل بوربون» Bourbon . الملوك !... إنهم يبعثون السفراء لتهنئة المغتصب !

وبزفرة هازئة عاد لسالف مسلكه . أما الأمير إيبوليت الذى كان قد لبث وقتاً طويلا يحملق من خلال نظارته فى الفيكونت ، فعندما سمع هذه الكلمات استدار خلفه ، ومال فوق الأميرة الصغيرة وطلب منها إبرة وبدأ يريها شكل شعار آل كونديه Condé ، وينقشه لها بالإبرة على المنضدة . وشرح لها رسم ذلك الشعار بكل جدية كأنما طلبت الأميرة منه ذلك . وكانت الأميرة تصغى باسمة .

واستطرد الفيكونت يقول بلهجة الرجل العارف بموضوعه ، فهو يتابع أفكاره غير مصغ لأحد :

– إن ظل بونابرت عاماً آخر فوق عرش فرنسا ستمضى الأمور إلى أبعد مما يجب . فبالغدر والتآمر والعنف وبالنفى والإعدام سيكون المجتمع الفرنسى – أعنى المجتمع الراقى الحقيقى – قد قضى عليه تماماً إلى الأبد ، وعندئذ ...

وهز كتفيه ، وأومأ إيماءة قنوط بيده . وأراد بيير أن يقول شيئاً ما – فالحديث شاقه – ولكن أنا بافلوفنا التى كانت تضع عينها عليه تدخلت وقالت بلهجة حزينة تقترن دائماً بحديثها عن الأسرة القيصرية :

– والإمبراطور ألكسندر أعلن نيته أن يترك الفرنسيين أنفسهم يختارون نوع حكومتهم . وفى تخيلى أن الأمة كلها ، متى تخلصت من هذا الغاصب ، سوف تلقى بنفسها فى أحضان ملكها الشرعى .

وكانت بكلامها هذا تريد أن تتلطف مع المهاجر الملكى المخلص ، وقال الأمير أندريه :

– ليس هذا مقطوعاً به . إن سيادة الكونت محق تماماً فى قوله إن الأمور مضت إلى أبعد مما يجب حتى الآن . ولذا أعتقد أنه لن يكون من السهل إعادتها إلى أوضاع النظام القديم .

وقال بيير ، وقد احمر وجهه، متدخلا مرة أخرى فى الحديث :

– على قدر ما بلغنى ، إن معظم النبلاء الفرنسيين قد أقبلوا على بونابرت .

فقال الفيكونت من غير أن ينظر إلى بيير :

– هذا ما يقوله البونابرتيون . ومن الصعب الآن معرفة حقيقة الرأى العام فى فرنسا .

فقال الأمير أندريه بابتسامة ساخرة :

– هكذا أيضاً قال بونابرت .

وكان واضحاً أنه لم يكن يحب الفيكونت ، ومع أنه لم يكن ينظر إليه ، إلا أن ملاحظاته كانت موجهة إليه ، بل ضده . وقال بعد برهة صمت قصيرة ، مقتبساً للمرة الثانية كلمات نابليون :

– « لقد أريتهم طريق المجد ، ولم يريدوا أن يسلكوه . ففتحت لهم قاعات انتظارى فتقاطروا وتزاحموا عليها » ، ولست أدرى فى الواقع إلى أى حد كان محقاً فى كلامه .

فرد عليه الفيكونت بقوله وهو يوجه الكلام إلى أنا بافلوفنا :

– لا حق فى كلامه هذا إطلاقاً . فمنذ مقتل الدوق لم يعد أشد أنصاره حماسة يعدونه بطلا . هذا إن كان بعض الناس قد جعلوا منه بطلا أصلا . فمنذ مقتل الدوق زاد عدد الشهداء فى السماء واحداً ، ونقص الأبطال فى الأرض واحداً .

ولم يكد يتسع الوقت أمام أنا بافلوفنا وبقية الحاضرين كى يبتسموا لعبارة الفيكونت ، لأن بيير اقتحم الحديث ، ومع أن أنا بافلوفنا كانت تتوجس أن يقول شيئاً غير ملائم ، إلا أنها هذه المرة لم تتمكن من كبحه ، فقال بيير :

– إن إعدام الدوق دانجيان كان ضرورة سياسية ، وأعده دليل عظمة روحية لنابليون ، لأنه لم يتردد فى أخذ المسئولية كلها على عاتقه !

فتأوهت أنا بافلوفنا فى همسة ارتياع :

– يا إلهى ! آه ياربى !

وقالت الأميرة الصغيرة باسمة وهى تقرب شغلها منها :

– ماذا يا مسيو بيير ؟ أتظن القتل عظمة روحية ؟

وصاحت أصوات أخرى :

– آه ! أوه !

وقال الأمير إيبوليت بالإنجليزية ، وهو يضرب ركبته :

– رائع !

وأما الفيكونت فاكتفى بهز كتفيه .

ونظر بيير من فوق نظارته إلى سامعيه فى جد ، واستطرد مستميتاً .

– أقول هذا لأن آل بوربون فروا من الثورة ، تاركين الشعب للفوضى ، ونابليون وحده كان هو الذى استطاع فهم الثورة ، وقهرها ، ولذا لم يكن فى وسعه من أجل الصالح العام أن ينكص على عقبيه أمام حياة رجل واحد .

فقالت أنا بافلوفنا :

– هلا أتيت إلى هذه المنضدة ؟

ولكن بيير واصل كلامه ولم يرد عليها ، وقد ازداد حرارة ولهفة :

– نعم ! نابليون عظيم لأنه استطال على الثورة ، وكبح شرورها ، واحتفظ منها بكل ما هو صالح ونافع ، وهو مساواة المواطنين وحرية الكلام وحرية الصحافة ، ومن أجل هذه الغايات استولى على السلطة العليا .

فقال الفيكونت :

– يصح هذا لو أنه بعد أن تسلم السلطة العليا ردها إلى الملك الشرعى ، بدلا من استخدامها فى القتل . عندئذ ، وعندئذ فقط كنت أدعوه رجلا عظيماً .

فواصل مسيو بيير كلامه كاشفاً بعباراته الصريحة عن تحد سافر مستميت لآراء الفيكونت ، تنم على يفاعته وتهوره :

– كان من الممكن أن يصنع نابليون هذا ، ولكن الشعب منحه السلطة العليا كى يخلصه ببساطة من آل بوربون ، وذلك بالضبط هو سبب اعتقاد الشعب بعظمته . فالثورة كانت واقعاً عظيماً .

فقالت أنا بافلوفنا باستنكار :

– الثورة وقتل الملك واقع عظيم ؟ وماذا بعد هذا ؟ .. ولكن هلا أتيت إلى هذه المنضدة ؟

فقال الفيكونت بابتسامة كالحة :

– العقد الاجتماعى !

– أنا لا أتحدث عن قتل الملك ، بل عن فكرة الثورة .

فقال صوت ساخر :

– فكرة النهب والسلب والقتل ، وإعدام الملك !

– كانت هذه تطرفات مسرفة بالطبع ، ولكن المعنى الكلى للثورة لا ينحصر فى ذلك ، بل فى حقوق الإنسان ، والتحرير من

الأفكار التقليدية، وفى المساواة ، وهذه الأمور كلها حافظ نابليون عليها بكامل عنفوانها .

فقال الفيكونت بازدراء ، كأنما صح عزمه فى نهاية المطاف على أن يرى هذا الشاب بكل جدية حماقة معتقداته :

– الحرية والمساواة ! ألفاظ ذات جرس عالى الطنين والرنين، ولكن قيمتها الحقيقية هبطت منذ ذلك الحين كثيراً . ومن ذا الذى لا يحب الحرية والمساواة ؟ إن مخلصنا – له المجد – بشر حقاً بالحرية والمساواة . ولكن هل أصاب الناس حظاً من السعادة منذ الثورة ؟ بالعكس ! إننا نحن أردنا الحرية ، ولكن بونابرت سحقها !

ونظر الأمير أندريه باسماً إلى بيير أولا ثم إلى الفيكونت ، ثم نظر بعد ذلك إلى ربة الدار .

وكانت أنا بافلوفنا للوهلة الأولى ، برغم لباقتها الاجتماعية ، قد ارتاعت لما تفجر به بيير ، ولكنها عندما رأت أن الفيكونت لم يثر كثيراً أو يتكدر لما تفوه به بيير من تجديف ، أقنعت نفسها أنه ليس فى وسعها كبح هذه الأقوال أو مصادرتها ، وجمعت كل قوتها وانضمت إلى الفيكونت فى مهاجمة هذا الخطيب الجسور ، وقالت :

– ولكن يا عزيزى المسيو بيير ، ماذا يمكن أن تقوله دفاعاً عن الرجل العظيم الذى اجترأ على إعدام الدوق، أو أى مخلوق بشرى ، بكل بساطة وبلا ذنب جناه وبلا محاكمة عادلة ؟

وقال الفيكونت :

— وأنا أود أن أسأل كيف يتسنى للسيد الفاضل أن يفسر اليوم الثامن عشر من برومير ؟ أو لم يكن ذلك خيانة ؟

— لقد كان حيلة من حيل المهرجين لا يشبه فى شىء أسلوب رجل عظيم فى التصرف .

وقالت الأميرة الصغيرة :

— والجرحى الذين قتلهم فى إفريقيا ؟ لكم كان هذا فظيعاً !

وهزت كتفيها .. وقال الأمير إيبوليت :

— إنه سوقى ، مهما قلت عنه !

ولم يدر مسيو بيير على أى هؤلاء يرد ، فنظر إليهم جميعاً وابتسم ، وكانت ابتسامته تختلف أشد الاختلاف عن نصف الابتسامة التى ارتسمت على وجوه الآخرين جميعاً . فعند ما ابتسم فجأة اختفى على الفور وجهه الجاد بل العابس تمام الاختفاء ، وظهر وجه مختلف ، طفيلى ، مرح ، بل أقرب إلى الغباء ، كأنما يلتمس من الناس التساهل معه . وعندئذ رأى الفيكونت — الذى شاهده لأول مرة — أن هذا اليعقوبى ليس بكل هذه الفظاعة التى تصورها كلماته .

ولزم الجميع الصمت ، ثم قال الأمير أندريه :

— وكيف يتسنى له أن يرد علي الجميع فى آن واحد ؟ ثم لا بد للمرء أن يميز فى أفعال رجل الدولة بين أعماله كشخص عادى وأعماله كقائد أو إمبراطور . هكذا يبدو لى !

وقال بيير سعيداً بهذه النجدة التى أسعفته :

— نعم . نعم . بالطبع .

وواصل الأمير أندريه كلامه :

— ولا بد أن يعترف المرء أن نابليون كرجل كان عظيماً عند الجسر فى أركولا Arcola ، أو فى المستشفى بيافا ، عندما صافح بيده المصابين بالطاعون ، ولكن ... ولكن هناك تصرفات أخرى من العسير تبريرها .

ونهض الأمير أندريه الذى أراد بكلامه أن يخفف من حرج موقف بيير ، لينصرف ، وأومأ إلى زوجته . وفجأة نهض الأمير إيبوليت من مكانه واستوقف الجميع بحركة من يده ، وأشار إليهم كى يجلسوا ، وشرع يتكلم :

— آه . لقد سمعت قصة من موسكو اليوم . ولابد أن أسرى عنكم بها . ولابد أن تسمح لى يا فيكونت ، إذ لا مناص من روايتها باللغة الروسية . وإلا ضاعت نكهة القصة .

وبدأ الأمير إيبوليت يتكلم بالروسية ، مستخدماً اللهجة التى يستخدمها الفرنسيون بعد قضاء عام فى روسيا ، وظل كل واحد منتظراً فى توقع ، لأن الأمير إيبوليت كان قد ألح على الجميع فى لهفة ان يعيروا حكايته انتباههم :

— توجد فى موسكو سيدة . سيدة شحيحة جداً . وأرادت أن يكون دائماً وراء عربتها خادمان ، خادمان طويلان جداً ، فهكذا

كان ذوقها . وكانت لديها خادمة ، وكانت هذه الخادمة طويلة جداً ، فقالت ...

وهنا توقف الأمير إيبوليت وفكر ملياً ، كأنما يجد صعوبة فى استجماع أفكاره .

– فقالت ... نعم قالت للخادمة : يا بنت ! ارتدى الكسوة المطرزة ، واركبي خلف العربة لأقوم بزياراتى ..

وهنا أطلق الأمير إيبوليت قهقهة ، وضحك قبل أن يضحك أى واحد من السامعين ، وخلق بذلك انطباعاً ليس فى صالحه بحال . ولكن عدة أشخاص منهم السيدة المسنة وأنا بافلوفنا ابتسموا مع ذلك . واستطرد الأمير .

– وانطلقت العربة ، وفجأة هبت ريح عاصفة ، فطارت قبعة الفتاة ، وتهدل شعرها الطويل .

وعندئذ لم يستطيع تمالك نفسه ، وشرع يضحك بعنف ، وفى وسط ضحكه العالى قال :

– وهكذا عرف الناس جميعاً ...

وبذلك انتهت النادرة ، ومع أنه ما من أحد استطاع أن يفهم لماذا رواها ، ولماذا أصر على أن يرويها باللغة الروسية ، إلا أن أنا بافلوفنا وعدة أناس آخرين قدروا له تربيته الاجتماعية ؛ لأنه وضع بهذه الصورة خاتمة لانفجار المسيو بيير الثورى المنافى للياقة . وفعلا تحولت الأحاديث بعد هذه النادرة إلى موضوعات سطحية

كالكلام عن آخر حفل راقص ، وعن الحفل الراقص المقبل ، وعن المسرح ، ومتى وأين يقابل المرء هذا الشخص أو ذاك ..

– ٥ –

شكر الضيوف أنا بافلوفنا على سهرتها البديعة ، ثم أخذوا فى الانصراف .

وكان بيير أخرق ، بديناً ومفرط الطول ، وله يدان كبيرتان حمراوان ، لا يعرف – كما يقولون – كيف يدخل قاعة استقبال ، وهو أقل من ذلك معرفة بكيفية الخروج منها ، أى لا يعرف كيف يقول شيئاً بالغ اللطف وهو منصرف . وكان فضلاعن هذا شارداً . فوقف وتناول قبعة مثلثة الأركان فيها ريشة جنرال بدلا من قبعته . وظل ممسكاً بها وهو يعبث بريشها إلى أن طلب منه الجنرال أن يردها إليه . ولكن شروده الحالم وعجزه عن الدخول اللائق إلى قاعة استقبال أو المشاركة اللبقة فى أحاديثها كفرت عنها ملامح طيبة القلب والبساطة والتواضع البادية عليه ، فالتفتت إليه أنا بافلوفنا وبوداعة مسيحية تدل على صفحها عن سوء سلوكه ، أومأت إليه برأسها وقالت :

– أتمنى أن أراك ثانية ، ولكنى أتمنى أيضاً أن تغير من آرائك يا عزيزى مسيو بيير .

ولم يرد عليها ، بل انحنى ببساطة ووجه لكل واحد ابتسامته التى كأنها تقول بصريح اللفظ :

– آراء أو لا آراء . ها أنتم ترون أى مخلوق لطيف طيب القلب أنا !

وشعرت أنا بافلوفنا والجميع بذلك شعوراً غريزياً ، وكان الأمير أندريه قد خرج إلى البهو ، وأدار كتفيه للحاجب الذى كان يستعد لوضع عباءته فوقهما ، وهو مصغ بغير اكتراث إلى زوجته وهى تثرثر مع الأمير إيبوليت الذى كان قد خرج أيضاً إلى البهو . ووقف الأمير إيبوليت ملاصقاً للأميرة الجميلة التى سرعان ما ستغدو أماً ، وراح يحدق فيها من وراء منظاره بإلحاح .

وقالت الأميرة الصغيرة وهى تودع أنا بافلوفنا :

– ادخلى يا أنيت وإلا أصبت بالبرد .

ثم همست لها بصوت غير مسموع :

– اتفقنا ...

وكانت أنا بافلوفنا قد تمكنت من الهمس بكلمات قليلة إلى ليزا عن الزيجة التى كانت تدبر عقدها بين أناتول وأخت زوج الأميرة الصغيرة . وقالت أنا بافلوفنا رداً عليها فى همس خافت أيضاً :

– إنى معتمدة عليك يا عزيزتى ، اكتبى إليها وقولى لى كيف ينظر والدها إلى المسألة ، إلى اللقاء !

وعادت إلى داخل قصرها مغادرة البهو .. واتجه الأمير إيبوليت إلى الأميرة الصغيرة ، ومال بوجهه قربها وراح يقول لها كلاماً بما يشبه الهمس . ووقف حاجبان : أحدهما حاجب عربة الأميرة ،

والآخر حاجب عربته ، وفى أيديهما الشال والسترة الطويلة ينتظران ريثما يفرغان من حديثهما ، ويصغيان لرطانتهما الفرنسية التى لا يفهمان منها شيئاً ، بوجهين كأنهما يعنيان بأماراتهما أنهما يفهمان ولكن لا يريدان أن يظهرا ذلك ، وكانت الأميرة الصغيرة كالعهد بها دائماً تتكلم باسمة وتصغى وهى تضحك . وكان الأمير إيبوليت يقول :

– إنى سعيد جداً لأنى لم أذهب إلى حفلة السفير .. يا لها من حفلة مضجرة .. فهذه السهرة كانت بهيجة جداً ، أليس كذلك ؛ بهيجة ! ..

فأجابت الأميرة الصغيرة ، مقلصة شفتها الناعمة الملساء :

– يقولون إنها ستكون حفلة فاخرة جداً ، فكل النساء الجميلات سيكن هناك .

فقال الأمير إيبوليت ضاحكاً فى جذل ، وهو ينتزع الشال من الحاجب ويدفعه بعيداً ، ويشرع فى وضعه فوق كتفى الأميرة الصغيرة :

– أبداً . أبداً . لن يكن كلهن هناك ، لأنك أنت هنا ولست هناك !

وإما عن ارتباك ، أو عمداً – لا أحد يدرى بالضبط – لم يرفع يديه بسرعة ، بل ظلتا طويلا بعد أن وضع الشال على كتفيها ، فكأنه يضم الشابة بين ذراعيه . وبرشاقة ، وهى ما تزال باسمة ، تحركت مبتعدة ، واستدارت ونظرت إلى زوجها ، وكانت عينا

الأمير أندريه مغلقتين ، والإعياء والنعاس باديين عليه : وسأل زوجته وهو يتجنب عينيها :

— أأنت مستعدة ؟

وأسرع إيبوليت بارتداء سترة الردنجوت الطويلة التى كانت تصل فى الموضة الجديدة إلى الكعبين ، حتى لقد تعثر فيها وهو يجرى إلى المدرج وراء الأميرة الصغيرة ، حيث كان الحاجب يساعدها على الصعود إلى العربة ، وصاح بلسان متعثر كساقيه :

— إلى اللقاء يا أميرة !

والتقطت الأميرة أذيال ثوبها ، وجلست فى الظلام داخل عربتها ، وانشغل زوجها بتدبير وضع ملائم لسيفه ، أما الأمير إيبوليت فكان تحت ستار المعاونة يعرقل الجميع . فقال الأمير أندريه بالروسية فى جفاف واستياء للأمير إيبوليت الذى كان يسد عليه الطريق :

— بإذنك ياسيدى !

ثم قال بلهجة ودية دافئة :

— إنى أنتظر قدومك يا بيير .

وانطلق الحوذى بالجياد خبباً ، وقعقعت العربة مبتعدة، وأطلق الأمير إيبوليت العنان لقهقهة قصيرة مهتزة وهو واقف على المدرج فى انتظار الفيكونت ، لأنه كان قد وعده أن يحمله فى عربته إلى البيت .

وقال الفيكونت وهو يجلس معه فى العربة :

— أجل يا صاحبى العزيز . أميرتك الصغيرة جميلة جداً . جميلة جداً . جميلة جداً حقاً .

ولثم أطراف أصابعه ثم أردف :

— وفرنسية للغاية .

فصهل إيبوليت وضحك . فقال الفيكونت :

— ألا تدرى أنك عفريت بما تبديه من براءة وسذاجة ، وأنا آسف للزوج المسكين ، ذلك الفتى الضابط الذى يفتعل وقار الأمراء الحاكمين المتوجين .

فقهقه إيبوليت مرة أخرى ، وقال فى وسط ضحكاته :

— وأنت قلت إن السيدات الروسيات لسن أكفاء للسيدات الفرنسيات ، وكل ما هناك أنك ينبغى أن تعرف كيف تعاملهن .

وكان بيير قد وصل أولا إلى دار الأمير أندريه ، فدخل إلى مكتبه كأنه من أهل البيت ، ورقد من فوره على الأريكة ، كما هى عادته ، وتناول أول كتاب وقعت عليه يده مما فوق الرف (وكان « تعليقات يوليوس قيصر ») واتكأ على كوعه ، وشرع يطالع فيه من وسطه .

وقال الأمير أندريه عندما دخل حجرة المكتب وهو يفرك يديه البيضاوين :

– لقد أنزلت صدمة مروعة بالمدموازيل شيرر (أنا بافلوفنا)! لابد أنها الآن مريضة !

فتقلب بيير بكل جسمه على الأريكة فصدر منها صرير ، واتجه بوجهه التواق المتلهف إلى الأمير أندريه وابتسم ولوح له بيده ، ثم قال :

– لقد كان هذا الأب موريو شائقاً جداً فى حديثه ، وكل ما هناك أن أفكاره عن كل شىء غير صائبة ... فنى رأيى أن السلام الدائم ممكن ، ولكن لا أدرى كيف أعبر عما بذهنى ... إنه ليس ممكناً بتوازن القوى السياسية ...

وكان واضحاً أن الأمير أندريه لم يكن مهتماً بهذه المناقشات النظرية المجردة ، فسكت لحظة ثم قال :

– إن المرء لا يستطيع أن يقول كل ما يدور بذهنه فى كل مكان يا عزيزى . والآن قل لى هل استقررت على شىء ما آخر الأمر ؟ هل تنوى أن تدخل الخيالة أم السلك الدبلوماسى .

فجلس بيير على الأريكة واضعاً ساقيه متراكبتين من تحته :

– أتصدق ؟ أنا مازلت لا أدرى . فلست أحب هذه ولا تلك !

– ولكنك يجب أن تقرر شيئاً ، فأنت تعلم أن أباك يتوقع منك ذلك .

وكان بيير قد أرسل وهو فى سن العاشرة مع قس كرب خاص

لكى يتلقى تعليمه فى الخارج ، وظل هناك حتى سن العشرين ، ولما عاد إلى موسكو صرف أبوه المربى الخاص وقال للشاب :

– اذهب إلى بطرسبرج وانظر حولك واختر لنفسك ما يحلو وأنا موافق على أى شىء يقع اختيارك عليه . وهاك خطاباً إلى الأمير فاسيلى ، وهاك نقوداً . واكتب وخبرنى بكل شىء . وسأساعدك فى كل شىء .

وها قد سلخ بيير حتى الآن ثلاثة أشهر ليختار عملا ، ولم يحزم أمره بعد على اختيار معين . وكان كلام الأمير أندريه الآن معه عن هذا الاختيار . ودعك بيير جبهته ، وقال :

– ولكن لا بد أنه ماسونى ..

يعنى بذلك الأب موريو الذى قابله هذه الليلة ، فعاد الأمير أندريه يسترعى نظره قائلا :

– هذا كله هراء . والأفضل أن نتحدث فى الأمور الجدية . هل ذهبت إلى خيالة الحرس ؟

– كلا ، لم أذهب . ولكن هذا ما لفت نظرى وأردت أن أتحدث فيه معك . إن هذه الحرب ضد نابليون . ولو كانت حرباً فى سبيل الحرية ، لكان فى وسعى أن أفهمها ، ولكنت أول من ينضم إلى الجيش ، أما أن تحارب إنجلترا والنمسا ضد أعظم رجل فى العالم ... فهذا ما لا أراه صواباً .

فاكتفى الأمير أندريه بهز كتفيه رداً على كلمات بيير الطفولية ،

وبدا عليه أن المرء لا يسعه أن يرد على مثل هذه السخافات . ولكن الحقيقة أنه كان من العسير أن يجد المرء رداً على هذا السؤال الصريح الساذج سوى ما قاله الأمير أندريه :

– لو أن كل إنسان لم يحارب إلا فى سبيل ما يقتنع به شخصياً ، لما نشبت أى حرب !

فقال بيير :

– وليكون هذا شيئاً حسناً جداً أيضاً !

فابتسم الأمير أندريه ساخراً وقال :

– ربما كان هذا شيئاً حسناً جداً ، ولكنه لن يحدث أبداً ...

فسأله بيير :

– خبرنى إذن لماذا أنت ذاهب إلى الحرب ؟

– لماذا ؟ لست أدرى ! أنا ذاهب لأنه لابد لى من الذهاب . ثم إننى ذاهب ...

وتوقف قليلا ثم استطرد :

– أنا ذاهب لأن الحياة التى أحياها هنا ... هذه الحياة .... لا توافق ذوقى ومزاجى ...

– ٦ –

وسمع حفيف ثوب امرأة فى الحجرة المجاورة ، فأجفل الأمير أندريه ، كأنما ليستجمع نفسه ، واكتسى وجهه بالتعبير الذى كان يكسوه فى قاعة استقبال أنا بافلوفنا . وأنزل بيير ساقيه من فوق

الأريكة . ودخلت الأميرة . وكانت قد غيرت ثوب السهرة ، وارتدت ثوباً بيتياً لا يقل فى نضارته وأناقته عن الثوب الأول ، ونهض الأمير أندريه بكياسة وتهذيب وقدم لها كرسياً . وقالت الأميرة بالفرنسية وهى تجلس بعجلة وأناقة على راحتها فى الكرسى المنخفض :

– إنى لأتساءل فى كثير من الأحيان لماذا لم تتزوج أنيت قط ؟ ما أغباكم أيها الرجال لأنكم لم تفكروا فى الزواج بها ، واغفروا لى قولى إنكم لا تحسنون جميعاً يا جنس الرجال تقدير النساء . وأنت يا مسيو بيير يا لك من إنسان مشاكس !

فقال بيير موجهاً الكلام إلى الأميرة بدون أى تصنع شائع بين الشباب حين يخاطبون امرأة شابة :

– وها أنا لم أزل أجادل زوجك ، فلست أفهم لماذا يريد الذهاب إلى الحرب .

فارتجفت الأميرة ، ولا شك أن كلمات بيير لمست فيها وتراً حساساً ، وقالت :

– آه ! وهذا ما أقوله . فلست أفهم . نعم أنا ببساطة لا أفهم لماذا لا يستطيع الرجال أن يعيشوا بدون حرب . ولماذا نحن النساء لا رغبة لنا فى شىء كهذا ؟ نحن لا نهتم بالحرب ولا نبالى بأمورها . اسمع ! كنت أنت القاضى الذى يحكم بيننا بالحق .. أنا دائماً أقول له . إنه هنا معاون عمى . ومنصبه لامع للغاية ، وهو معروف جداً

وموضع تقدير كل إنسان . ومنذ أيام فى دار آل ابراكسين سمعت سيدة تسأل : « أهذا إذن هو الأمير أندريه الشهير ؟ إنه يدعى إلى كل مكان ! » .

وضحكت ثم أردفت :

– إنه يستطيع أن يرقى إلى أركان حرب الإمبراطور . وأنت تعرف أن الإمبراطور تحدث إليه بكل ظرف فى آخر مقابلة . وكنت أتحدث فى هذا مع أنيت وقالت إنه من الممكن جداً تدبير ذلك . فما رأيك ؟

فنظر بيير إلى الأمير أندريه ، ولاحظ أن صديقه لا يرتاح لهذا الحديث ، فلم يرد عليها وسأله :

– ومتى تسافر ؟

فقالت الأميرة بنفس اللهجة اللعوب التى كانت تتحدث بها إلى الأمير إيبوليت فى السهرة ، وهى لهجة غير ملائمة البتة فى محيطها البيتى ، حيث كان بيير معدوداً من أفراد الأسرة :

– آه ! لا تحدثنى عن هذا الرحيل . لا تحدثنى عنه . فلست أحب مجرد الكلام فيه . والليلة عندما فكرت فى كل هذه العلاقات العزيزة عندى والتى لا بد من قطعها بالرحيل ... ثم هل تدرى يا أندريه .

ونظرت إلى زوجها نظرة ذات معنى ، وقالت همساً وكتفها ترتجف :



ونهض الأمير أندريه بكياسة وتهذيب وقدم لها كرسيًا ..

— أنا خائفة . خائفة .

فنظر إليها زوجها كأنما أدهشه أن يلاحظ وجود أحد فى الحجرة غيره وغير بيير ، وبمجاملة جامدة سأل زوجته :

— وم أنت خائفة ياليزا ؟ لست أفهم !

— انظر يا بيير إلى أى مدى تبلغ أنانيـة الرجال . إنهم جميعاً أنانيون ! جميعهم ! إنه قرر أن يهجرنى بإرادته الحرة ، ولنزوته الخاصة ، ولغير سبب على الإطلاق يهجرنى ويزمع أن يحبسنى وحيدة فى الريف .

فقال الأمير أندريه بكل هدوء :

— بل مع أبى وشقيقتى . تذكرى هذا .

— فكأننى وحدى تماماً بالضبط ، بدون أصدقائى .. ثم يتوقع منى ألا أخاف .

وكان صوتها الآن قد غدا ناطقاً بالشحناء ، وقد ارتفعت شفتها العليا إلى فوق ، فلم يضف ذلك على محياها الجذل والحبور ، بل غدت سحنتها كسحنة الحيوان المفترس عندما يكشر عن أنيابه ، أو كأنها السنجاب البرى . وسكتت كأنما تراجع نفسها فى لياقة الكلام عن «حالتها» أمام بيير ، مع أن هذا جوهر المسألة كلها . وقال الأمير أندريه بأناة ، من غير أن يحول أنظاره عن زوجته :

— لست أدرى ماذا يخيفك ؟

فاحمر وجه الأميرة بشدة ، ولوحت بيديها فى يأس ، وقالت :

— كلا يا أندريه ! إنى أراك تغيرت جداً . تغيرت كل التغير .

فقال الأمير أندريه :

— إن أوامر أطبائك تحتم إيواءك إلى الفراش مبكراً أكثر من العادة . وقد حان وقت نومك .

ولم تقل الأميرة شيئاً ، ولكن شفتها العليا القصيرة التى يغطيها الزغب الناعم بدأت ترتجف ، فنهض الأمير أندريه وتمشى فى الحجرة وهو يهز كتفيه .

ونظر بيير من فوق نظارته فى عجب ساذج ، منقلا بصره بين الأمير والأميرة ، وتململ بعدم ارتياح ، كأنه ينوى القيام ، إلا أنه غير رأيه . وقالت الأميرة الصغيرة فجأة وقد التوت ملامحها وأشرفت على البكاء :

— وماذا يهمنى من وجود المسيو بيير هنا ، فقد كنت أريد منذ وقت طويل أن أقول لك يا أندريه لماذا تغيرت إلى هذه الدرجة معى ؟ ماذا بدر منى ؟ ها أنت ذاهب إلى الحرب غير شاعر بى لم هذا ؟

— لـيزا !

كان هذا كل ماقاله الأمير أندريه ، ولكن هذه الكلمة الواحدة كان فيها الرجاء والوعيد ، وبالأخص كان فيها الاقتناع بأنها ستندم على كلماتها هذه . إلا أنها استطردت على عجل :

– إنك تعاملنى كما لو كنت مريضة أو طفلة ، هذا ما اتضح لى . ولم تكن هكذا منذ ستة أشهر .

فقال الأمير أندريه ، بمزيد من الحزم :

– ليزا ! أرجوك أن تصمتى !

ونهض بيير الذى زاد اضطرابه أثناء هذا الحوار ، وتوجه صوب الأميرة ، وكأنه لم يعد قادراً على تحمل منظر دموعها ، حتى أشفى شخصياً على البكاء ، وقال لها :

– أرجوك لا تكربى نفسك يا أميرة . إنك تتصورين هذه الأمور لأنك ... أوه . أؤكد لك أننى شخصياً شعرت بهذا لأنك ... واغفرى لى تدخلى ، فليس هذا من شأن شخص غريب . أوه ! لا تبتئسى ... إلى اللقاء .

ولكن الأمير أندريه أمسك بيده واستوقفه قائلا :

– كلا ! انتظر قليلا يا بيير . الأميرة طيبة جداً ولن تحرمنى من متعة قضاء أمسية معك .

فانفجرت الأميرة ، عاجزة عن كبح دموع غضبها :

– كلا ! إنه لا يفكر إلا فى نفسه !

فقال الأمير أندريه بجفاف ، رافعاً صوته إلى طبقة تدل على أن صبره قد نفد :

– ليـــزا !

وعلى الفور حل محل تعبير السنجاب الغاضب على وجه الأميرة

الصغير الجميل نظرة جذابة تنطق بالفزع والتعاطف ، ورنت من تحت حاجبيها بعينين حلوتين إلى زوجها ، واكتسى وجهها بنظرة التزلف التى يفيض بها وجه كلب استشعر الندم وراح يهز ذيله بالولاء لصاحبه . وغمغمت :

– يا إلهى ! يا إلهى ؟

ثم أمسكت ثوبها وذهبت إلى زوجها وقبلته فوق جبينه ، فقال الأمير أندريه وهو ينهض ويقبل يدها بكل تهذيب ، كأنها امرأة غريبة قائلا :

– طابت ليلتك يا ليزا .

* * *

وصمت الصديقان ، فلم يبدأ أحد منهما بالكلام . ونظر بيير إلى الأمير أندريه ، ودعك الأمير جبهته بيده الصغيرة ، ثم تنهد وقال وهو ينهض ويمضى نحو الباب :

– قم بنا نصب شيئاً من العشاء .

وذهب الاثنان إلى قاعة الطعام الحديثة التأثيث برياشها الأنيقة . وكان كل شىء من فوط العشاء إلى الفضيات إلى الصينى والزجاج والأكواب ، ظاهر عليها الحداثة والجدة التى ترى فى أثاث جميع العلية من المتزوجين حديثاً . وفى منتصف العشاء اتكأ الأمير أندريه على كوعه ، وشأن رجل يفكر منذ وقت طويل فى شىء ما وقرر

فجأة أن يبوح به ، بدأ يتكلم فى توتر عصبى لم يعهده بيير فى صديقه من قبل :

– إياك إياك أن تتزوج أبداً يا صديقى العزيز ! هذه نصيحتى لك ! لا تتزوج إلى أن تتأكد أنك فعلت كل ما أنت قادر على القيام به ، وإلى أن تكف عن حب المرأة التى اخترتها ، وإلى أن تراها بوضوح عاطلة من الفتنة ، وإلا ارتكبت غلطة حمقاء لن تتمكن بعد ذلك من إصلاحها ! تزوج عندما تتقدم فى السن ولا تصلح لشىء . وإلا قضى فيك على كل ما هو حسن وسام قضاء مبرماً ، لأن حياتك بعد الزواج ستتبدد فى التوافه ! نعم ! نعم ! نعم ! لا تنظر إلى بكل هذه الدهشة ! إن كنت تتوقع من نفسك أى خير فى المستقبل ستحس فى كل خطوة أن كل شىء انتهى بالنسبة لك ، وكل الأبواب أغلقت فى وجهك ما عدا قاعات الاستقبال ، حيث تقف فيها على قدم المساواة مع حجاب القصر والبلهاء ... ولماذا هذا ؟ ...

ولوح بيده فى حركة عنيفة .. فخلع بيير نظارته ، فتغير تعبير وجهه وصار أدل على الطيبة المفرطة ، ونظر إلى صديقه بدهشة ، فاستطرد الأمير أندريه :

– إن زوجتى امرأة ممتازة . إنها من القلة التى يشعر المرء معها أنه آمن على شرفه ! ولكن يا إلهى ! ما الذى لا أضن به الآن كى أكون أعزباً ! إنك أول شخص ، بل الوحيد الذى أصارحه بهذا ، لأنى أحبك !

وإذ كان الأمير أندريه يقول هذا الكلام كان قليل الشبه ببلكونسكى الذى كان جالساً بتراخ فى قاعة استقبال أنا بافلوفنا بعينين نصف مغمضتين ، ويتفوه بعبارات فرنسية متقطعة من بين أسنانه . أما الآن فكان وجهه الجاف يرتجف بالإثارة العصبية فى كل عضلة من عضلاته ، وعيناه اللتان كانتا هناك خاليتين من البريق والحيوية ، تلمعان الآن وتومضان بضياء أخاذ . وبدا أنه بقدر ما يلوح عديم الحياة فى الأوقات العادية ، يغدو دافق الحيوية فى مثل ثورات الضيق الوبيل ...

واستطرد يقول :

– أنت لا تستطيع أن تفهم لماذا أقول هذا . لماذا ؟ إن قصة الحياة بأسرها تكمن وراء هذا . إنك تتكلم عن نابليون وعن تاريخ حياته ... تتكلم عن نابليون ، ولكن بونابرت عندما كان يشق طريقه صاعداً إلى المجد ، ماضياً صوب هدفه خطوة ، خطوة ، كان حراً ، فلم يكن أمامه سوى هدفه فوصل إليه . ولكنك إذا قيدت نفسك إلى امرأة ، وصرت أشبه بالسجين المقيد بالأغلال ، فقدت حريتك . وينقلب كل ما فيك من همة وقوة إلى عوائق تحز فى نفسك ندماً وحسرة . قاعات الاستقبال ، والثرثرة ، والمراقص ، والأباطيل والتفاهات . هذه هى الدائرة المسحورة التى لا أستطيع الفكاك منها . وها أنا ذاهب الآن إلى الحرب ، إلى أكبر حرب عرفها العالم ، ولا أعرف شيئاً ولست أصلح لشىء .. وأنا مجامل جداً وساخر ، وكان كل من فى

دار أنا بافلوفنا يصغى لى ، وهذا هو المجتمع الأبله الذى لا تستيطع زوجتى أن تعيش بدونه ! بل النساء كلهن عموماً هكذا ... وأنا أعرف طبيعة نساء المجتمع هاتيك ! ووالدى على حق ! كل ما فى المجتمع أنانية وغرور وحماقة وسطحية فى كل شىء . وهذه هى حقيقة النساء عند ما يكشفن لك عن حقيقتهن . وحين ينظر إليهن المرء فى المجتمع يحسب للوهلة الأولى أنهن على شىء ، ولكنهن فى الحقيقة خاويات ! كلا يا عزيزى ! لا تتزوج !

فقال بيير :

– يبدو لى من السخف القول بأنك أنت ، أنت بالذات ، تعد نفسك فاشلا ، وأن حياتك حطام ! فلديك كل شىء . وكل شىء متاح لك ، وأنت ...

ودلت نبرته على أنه عظيم التقدير لصديقه ، ومبلغ ما يتوقعه منه فى المستقبل . وفكر بيير فى نفسه :

– كيف يتسنى له أن يقول هذا ؟

فبيير كان يعد الأمير أندريه نموذجاً لكل كمال ، لأن الأمير أندريه كان حائزاً فى نظره لأعلى درجات هذا المزيج من الصفات التى كان بيير يفتقر إليها ، والتى يمكن أن يعبر عنها بفكرة واحدة هى قوة الإرادة . فبيير كان يدهش دائماً لقدرة الأمير أندريه على التعامل مع الناس من كل نوع برباطة جأش ورصانة بالغين ، ويعجب بذاكرته الخارقة ومعرفته الواسعة (فقد قرأ كل شىء

وعرف كل شىء ولديه فكرة عن كل شىء . وكان أشد ما يكون إعجاباً بقدرته على العمل والدرس ، ولئن أدهش بيير فى أحيان كثيرة افتقار أندريه للقدرة على الأحلام والتفلسف (وإلى هذا كان بيير نفسه يجنح كثيراً) فهو لم يكن يعد ذلك نقصاً ، بل جانب قوة . فحتى فى أشد العلاقات مودة وبساطة ودفئاً يحتاج المرء إلى التملق أو الإطراء كما تحتاج العجلات إلى التشحيم كى تواصل قدرتها على الدوران .

وقال الأمير أندريه بعد صمت قصير ، مفتراً عن ابتسامة :

– أنا رجل انتهى أمره . فلماذا تتحدث عنى ؟ لنتكلم عنك أنت .

فانعكست هذه الابتسامة فوراً على محيا بيير ، وقال بابتسامة كلها إشراق وراحة بال :

– ولم ! ماذا يمكن أن تقوله عنى ؟ ماذا أنا ؟ إنما أنا ابن سفاح !

واحتقن وجهه فجأة ، فكان واضحاً أنه وجد عناء كبيراً فى التفوه بهذه العبارة ، واستطرد :

– ابن سفاح لا اسم له ولا ثروة ، وفى النهاية ....

ولم يكمل عبارته ، ثم لم يلبث أن قال :

– ولكنى حر ، وقانع ... وكل ما هناك أنى لا أعرف إطلاقاً ماذا أشرع فى عمله . وكنت أنوى أن أسألك النصح فى هذا الشأن بكل جد .

فنظر إليه الأمير أندريه بعينين حانيتين ، ولكن برغم الحنان والمودة كان فيهما شعور بالتفوق . وقال :

– إنك أثير عندى لأنك الشخص الوحيد الحى بحق فى مجتمعنا . وأنت سعيد الحظ . لأنك تستطيع أن تختار كما تشاء ، فكل شىء عندك سواء . وستكون دائماً بخير حال ، ولكن هناك شيئاً واحداً أوصيك به : كف عن مخالطة آل كوراجين Kuragine ، وممارسة هذا النوع من الحياة ، فهى ليست ما يصلح لك إطلاقاً ، بكل ما فيها من شغب صاخب وتبذير وتسيب وما إلى ذلك .

فقال بيير ، وهو يهز كتفيه :

– وماذا تريد يا صاحبى العزيز ؟ النساء يا صاحبى ! النساء !

فأجابه أندريه :

– لست أستطيع أن أفهمك . السيدات مسألة أخرى . أما نساء كوراجين . أما النساء والخمر ، فذلك ما لا أفهمه ! وكان بيير مقيماً فى قصر الأمير فاسيلى كوراجين ، ويشارك فى الحياة الشهوانية المتسيبة التى يحياها ابنه أناتول ، وهو الابن الذى كانت أنا بافلوفنا تنوى تزويجه من شقيقة الأمير أندريه كى تصلحه .

وقال بيير كأنما خطرت له فكرة موفقة فجأة :

– أتدرى ؟ لقد كنت أفكر فى هذا بجد منذ وقت طويل ، فما دمت أعيش هذا النوع من الحياة فلن أستطيع تقرير شىء أو

التفكير فى أى شىء كما يجب . فرأسى مصدع وذاكرتى ممسوحة ، وهو قد دعانى الليلة ، ولكنى لن أذهب !

– أعطنى كلمة الشرف أنك ستكف عن الذهاب .

– أعدك بشرفى !

* * *

وكانت الساعة قد تجاوزت الواحدة مساء عندما غادر بيير دار صديقه ، وكانت ليلة خالية سماؤها من السحب ، فهى ليلة بطرسبرجية صيفية نموذجية . وركب بيير عربة مكتراة وفى نيته أن يتجه بها إلى البيت ، ولكنه كلما اقترب من وجهته زاد شعوره بأنه لا يستطيع أن يأوى إلى الفراش فى مثل هذه الليلة التى تشبه المساء أو الصباح أكثر مما تشبه الليل ، فالضوء كان كافياً كى يرى إلى مسافة طويلة فى الشوارع الخالية ، وفى الطريق تذكر بيير أن كل مجموعة المقامرة كانت متفقة على التلاقى فى مسكن أناتول كوراجين فى تلك الأمسية ، وبعد المقامرة تعقد فى العادة مباراة فى الشراب ، وهى هواية تتفق كثيراً مع تسلية بيير ومتعته المفضلة . فقال فى نفسه :

– ما أبدع الذهاب إلى مسكن كوراجين .

ولكنه تذكر على الفور وعده القاطع للأمير أندريه بألا يذهب إلى هناك بعد ذلك . إلا أنه جرياً على عادة ذوى الطبع الرخو ، غلبه على الفور شوق شديد إلى الاستمتاع مرة أخرى بذلك النوع من التبذل الذى صار مألوفاً له جداً ، وقرر الذهاب . وخطر له على الفور أن

وعده للأمير أندريه ليست له قيمة ، مادام قد سبقه وعد منه للأمير أناتول بالذهاب إلى مسكنه ، ثم جال بخاطره أن كل هذه العهود والوعود أمور نسبية ، وليس لها معنى محدد ثابت . ولا سيما إذا راعينا أننا ربما متنا غداً أو حدث شيء خارق يلغى الفارق بين ما يتفق مع الشرف وما يتنافى معه ، وكانت مثل هذه الخواطر كثيراً ما تجول بذهن بيير ، فتقضى على كل نياته وقراراته . وهكذا مضى إلى مسكن أناتول كوراجين .

ووقفت العربة أمام درج بيت كبير فى ثكنات خيالة الحرس ، حيث كان يعيش أناتول ، وصعد السلم المضاء ركضاً ، ثم دخل من باب مفتوح . ولم يكن هناك أحد فى حجرة الانتظار ، بل زجاجات فارغة وعباءات وأغطية أحذية ملقاة بلا ترتيب وفى فوضى كاملة . وكانت تفوح رائحة كحول قوية ، وعن بعد سمع كلاماً وصياحاً .

وكان لعب الورق والعشاء قد انتهيا ، ولكن الحفلة لم تنته ولم ينفرط عقد الجماعة ، فخلع بيير عباءته ، ودخل أول حجرة حيث رأى بقايا العشاء وحاجباً ظن أن لا أحد يرقبه كان يفرغ الكئوس نصف الملآنة فى جوفه خلسة ، وفى الحجرة الثالثة كانت هناك جلبة عالية وضحك ، وأصوات مألوفة له تتصايح ، وزمجرة دب ! كان هناك ثمانية شبان متجمعين بلهفة حول النافذة المفتوحة . وكان ثلاثة آخرون مشغولين بدب صغير ، وأحدهم يجذبه من سلسلته ويخيف الآخرين به ، وصاح أحدهم :

– أراهن بمائة على ستيفنز Stephens !

وصاح آخر :

– تذكر أنه لا يمكن إنقاذه ؟

وصاح ثالث :

– وأنا مع دولوهوف Dolohov ! اقبض الرهان يا كوراجين .

– وأنا أقول دع ميشكا وشأنه . نحن نراهن .

وصاح رابع :

– جرعة واحدة وإلا ضاع الرهان !

وصاح أناتول نفسه وهو فتى طويل وسيم واقف وسط الحجرة فى قميص خفيف مفتوح الصدر :

– يا ياكوف Yakov ! أعطنا زجاجة خمر يا ياكوف ! توقفوا يا سادة ! ها هو بتروشكا العزيز .

والتفت إلى بيير .

وإذا رجل متوسط الطول ذو عينين لامعتين ، يتميز على الخصوص بمنظره الذى يدل على الصحو وسط صخب السكارى ، يصيح من النافذة :

– تعال هنا ، وسأشرح لك الرهان .

وكان هذا هو دولوهوف ، ضابط من آلاى سيمينوف ، مشهور بالمقامرة والمبارزة ، وكان يقيم مع أناتول . وابتسم بيير وهو يتلفت حوله فى انشراح ، وقال :

— لست أفهم . ما المسألة ؟

فقال أناتول :

— انتظر لحظة . إنه ليس سكراناً . هات زجاجة خمر هنا .

ثم تناول كأساً من فوق المائدة وذهب إلى بيير :

— أولا وقبل كل شىء لا بد أن تشرب !

وشرع بيير يشرب كأساً تلو كأس ، وهو ينظر من تحت حاجبيه إلى طغمة السكارى الذين تجمعوا ثانية حول النافذة ، ويصغى لحديثهم ، وظل أناتول يملأ له كأسه باستمرار وقال له إن دولوهوف قد تراهن مع رجل إنجليزى أنه — أى دولوهوف — سيشرب زجاجة روم وهو جالس فوق نافذة الطابق الثالث ، وساقاه مدلاتان إلى خارجها . ثم قال أناتول وهو يعطى بيير الكأس الأخيرة :

— هيا ، أفرغ بقية الزجاجة وإلا فلن أطلقك !

فقال بيير وهو يدفع عنه أناتول بعيداً :

— كلا ! لا أريد !

وذهب إلى النافذة .

وكان دولوهوف ممسكاً بيد الرجل الإنجليزى ويشرح له بوضوح شروط الرهان ، وموجهاً كلامه على الخصوص إلى أناتول وبيير .

ودلوهوف رجل متوسط الطول ، له شعر متموج وعينان

زرقاوان صافيتان ، وفى الخامسة والعشرين من عمره . ومثل كل ضباط المشاة كان حليق الشارب ، ولذا كان فمه مكشوفاً للعيان ، وهو أبرز ملامحه ، لأن هذا الفم كان كالمنحوت بالإزميل لفرط دقته . وشفته العليا تطبق بشدة كالإسفين على شفته السفلى ، وعلى جانبى الفم ترتسم غمازتان كأنهما ابتسامتان ، تبدوان شديدتى التناقض مع نظرته الثاقبة الوقحة المطلة من عينيه ، بحيث لا يملك المرء إلا التنبه لتعبير هذا الوجه الشديد التفرد . وكان دولوهوف قليل الموارد ، هزيل النسب والاتصالات ، ومع أن أناتول كان ينفق عشرة الآف فى السنة إلا أن دولوهوف كان يعيش معه وناجحاً فى ترتيب أموره حتى أن أناتول وكل من عرفوهما كانوا يحترمون دولوهوف أكثر مما يحترمون أناتول . ودولوهوف يجيد كل أنواع الألعاب ، ويكسب فيها دائماً . ومهما أفرط فى الشراب لم يكن ذهنه يفقد صفاءه أبداً ، وكان كوراجين ودلوهوف فى ذلك الحين معروفين ذائعى الشهرة فى عالم التهور والتسيب ببطرسبرج .

وجىء بزجاجة الروم ، وحطم خادمان إطار النافذة الذى يعوق الجلوس فوقها ، واستعان أناتول ببيير على انتزاع الإطار البلوطى الصلب من موضعه ، ثم ارتقى دولوهوف حافة النافذة والزجاجة فى يده ، بحيث انعكست من ورائه صفحة السماء التى امتزجت فيها ألوان الصباح والليل ، ووقف ليواجه من بالداخل ، وتكلم بالفرنسية كى يفهم عنه الرجل الإنجليزى :

– اسمعوا جميعاً ! إنى أقبل الرهان بخمسين جنيهاً إمبراطورياً . أم تراك تحب أن تجعلها مائة ؟

وهز الإنجليزى رأسه سلباً وقال :

– لا . بل خمسين فقط .

– ليكن . الرهان خمسون جنيهاً إمبراطورياً ، على أننى سأشرب زجاجة الروم بأكملها من غير أن أنزلها عن شفتى . أشربها وأنا جالس خارج هذه النافذة هنا ، فى هذا الموضع (وانحنى وأشار إلى نتوء الجدار المنحدر خارج النافذة) ومن غير أن أمسك بأى شىء . أهذا صحيح ؟

فقال الإنجليزى :

– بالضبط .

والتفت أناتول إلى الإنجليزى وجذبه من زر سترته وهو يحدق فيه من عل (وكان الإنجليزى قصيراً) ، ثم شرع يكرر له شروط الرهان باللغة الإنجليزية . وصاح دولوهوف ، وهو يدق النافذة بالزجاجة استرعاء للانتباه :

– انتظر . انتظر يا كوراجين . اسمع ! وإذا فعل أى واحد نفس هذا العمل ، سأدفع له مائة جنيه إمبريالى ! مفهوم !

وهز الإنجليزى رأسه من غير أن يفصح هل قبل هذا الرهان الجديد أم لا .

واستمر أناتول ممسكاً بالرجل الإنجليزى ، مع أنه هز رأسه

تعبيراً عن تمام فهمه لما قاله دولوهوف ، ولكن أناتول ترجم إلى الإنجليزية كلام دولوهوف ، وتقدم ضابط هوسار يافع خسر كثيراً تلك الليلة فى القمار من النافذة ، وأطل برأسه منها ، ونظر إلى الشارع أسفلها ، وصاح :

– أوه ... أوووه ! أووو !

فصاح به دولوهوف :

– صه !

ودفع الضابط بعيداً ، فتعثر بمهمازيه واندفع متراجعاً فى الحجرة.

ووضع دولوهوف الزجاجة على حافة النافذة لكى تكون فى متناول يده ، وتسلق النافذة بحذر وبطء ، ثم دلى ساقيه ، ويداه مفتوحتان على طنف النافذة ، وتثبت من وضعه ، ثم أبعد يديه عن الطنف ، وتحرك قليلا إلى اليمين ، ثم إلى اليسار وتناول الزجاجة ، وأحضر أناتول شمعتين ووضعهما على طنف النافذة فشع ضوؤهما على جانبى ظهر ورأس دولوهوف بشعره المتموج ، وتجمع الكل حول النافذة . ووقف الرجل الإنجليزى فى المقدمة ، وابتسم بيير ولم يقل شيئاً . وأقبل أحد أفراد المجموعة ، وهو أكبر سناً من سائرهم وقد علا وجهه الفزع والغضب ، وحاول أن يجذب دولوهوف من قميصه ، وقال هذا الرجل العاقل :

– هذه حماقة أيها السادة . إنه سيقتل نفسه .

ولكن أناتول منعه قائلا :

– لا تلمسه ! إنك ستروعه وتقتله . إيه ؟ وماذا بعد هـــذا ؟ إيه ...... ؟

واستدار دولوهوف ، ومد ذراعيه أمامه مرة أخرى ليحفظ توازنه ، وقال بصوت رفيع والكلمات تخرج واحدة واحدة من بين شفتيه المطبقتين :

– إن حاول أحد آخر لمسى بعد الآن سألقى به من هذه النافذة فوراً . والآن !

وما أن قال الآن حتى استدار بظهره وأنزل يديه ، وتنـاول الزجاجة فرفعها إلى شفتيه . وأحنى رأسه للخلف ، ورفع يده الخالية إلى أعلى ليحفظ توازنه . وتوقف أحد الخدم ، وهو يجمع الزجاج المحطم فى وضعه المنحنى ، وقد ركز عينيه على النافذة وظهر دولوهوف . ووقف أناتول منتصب القامة مفتوح العينين على سعتهما . والرجـــل الإنجليزى يحملق من أحد الجانبين مزموم الشفتين ، أما الرجل الذى حاول إيقاف الرهان فانزوى فى ركن الحجرة ورقد على الأريكة ووجهه إلى الحائط . وأخفى بيير وجهه ، وقد ترك عليه ابتسامة منسية ، وإن كانت طافحة بالرعب. والخوف وران الصمت على الجميع . ورفع بيير يديه عن عينيه ، وكان دولوهوف لا يزال جالساً فى نفس الوضع ، إلا أن رأسه كان شديد الانثناء إلى الخلف حتى أن شعره المتموج مس ياقة قميصه ، وقد ارتفعت اليد الممســكة بالزجاجة وهى ترتعد من الجهد الكبير المبذول . وكان واضحاً أن

الزجاجة صارت خاوية تقريباً ، لذا ارتفعت اليد إلى أقصى علو ، وانثنى الرأس إلى أقصى ما يمكن فوق الظهر . وقال بيير فى نفسه :

– لماذا استغرق كل هذا الوقت ؟

فقد خيل إليه أن أكثر من نصف ساعة مرت . وفجأة تحرك دولوهوف إلى الخلف بعموده الفقرى ، وارتجفت ذراعه فى عصبية . وكان ذلك كافياً لتغيير وضعه وهو جالس فوق النتوء المنحدر ، وتحرك كل ما فيه وارتجف رأسه وذراعه بمزيد من العنف لفرط التوتر ، وارتفعت إحدى يديه لتقبض على طنف النافذة ، ولكنــه أنزلها بسرعة ، وأغلق بيير عينيه مرة أخرى وقال لنفسه إنه لن يفتحهما ، وفجأة شعر بحركة محتدمة حوله . فنظر ، وإذا دولوهوف واقف على طنف النافذة ، ووجهه شاحب إلا أنه فياض بالمرح .

– فارغة !

وقذف بالزجاجة إلى الرجل الإنجليزى الذى تلقفها برشاقــة ، ووثب دولوهوف نازلا من النافذة ، ورائحة الروم القوية تفوح منه . وتعالت الصيحات من حوله :

– رائع ! مرحى ! هكذا الرهان وإلا فلا ! يا لك من شيطان !

وأخرج الرجل الإنجليزى كيس نقوده وعد منه المبلغ . وقطب دولوهوف ولم يقل شيئاً . واندفع بيير إلى النافذة ، وصاح بالحاضرين فجأة :

– أيها السادة ! من ذا يراهننى ؟ سأفعل نفس هذا الشىء ! أنا



وكان واضحًا أن الزجاجة صارت خاوية تقريبًا ،
لذا ارتفعت اليد إلى أقصى علو ، وانثنى الرأس إلى أقصى ما يمكن ..

لا أهتم بالرهان ! انظروا إلى ! قولوا لهم يعطونى زجاجة . وسأفعل مثلما فعل .. قولوا لهم يأتونى بالزجاجة هنا .

وقال دولوهوف باسماً :

– دعوه ! دعوه !

وصاح بضعة أشخاص محتجين :

– أمجنون أنت ؟ لا أحد سيتركك تصنع هذا ! إنك تترنح كلما هبطت السلالم .

وقصف صوت بيير كالرعد وهو يضرب المائدة بحركة عزم تدل على السكر :

– سأشربها ! أعطونى زجاجة الروم .

وصعد فوق النافذة ، فتعلقوا بذراعيه ، ولكنه كان من القوة بحيث دفع عنه الجميع بعيداً ، فقال أناتول :

– لا . لا . هذه الطريقة لا تجدى معه . انتظروا لحظة وسأعرف كيف أحتال عليه ... اسمع ! سأراهنك ، ولكن فى الغد . لأننا الآن سنذهب جميعاً ...

فصاح بيير :

– هيا بنا ؟ ولنأخذ ميشكا معنا ...

وأمسك بالدب الصغير وعانقه ورفعه بين ذراعيه وراح يرقص الفالس معه حول الحجرة .

- ٧ -

بر الأمير فاسيلي بالوعد الذى قطعه على نفسه فى سهرة أنا بافلوفنا للأميرة درو بتسكوى التى كانت قد توسلت إليه من أجل ابنها بوريس . وقدم التماسه إلى الإمبراطور ، فوافق على ألا تكون هذه سابقة يستفيد منها سواه ، فعينه ملازماً ثانياً بالحرس فى آلاى سيمينوفسكى ، أما وظيفة أركان الحرب أو الملحق فى خدمة كوتوزوف فلم يمكن الحصول له عليها برغم كل توسلات أنا ميهايلوفنا (والدته) وجهودها الملحة .

وبعد فترة وجيزة من الحفل فى دار أنا بافلوفنا ، عادت أنا ميهايلوفنا إلى موسكو ، حيث أقاربها الأثرياء من آل رستوف Rostov ، الذين كانت تقيم معهم فى موسكو . ومع هؤلاء الأقارب شب ابنها بوريس منذ طفولته ، إلى أن عين فى آلاى مقاتل ، ثم نقل على الفور ملازماً ثانياً فى الحرس . وكان الحرس قد غادر بالفعل بطرسبرج فى العاشر من أغسطس ، وعلى ولدها أن يلحق بآلايه بعد أن يتم معداته فى موسكو ، فيتوجه إلى « رادزيفيلوف » .

وكان آل روستوف يحتفلون بعيد اسم الأم والابنة الصغرى ، وكل منهما تسمى ناتاليا Natalia . ومنذ الصباح كانت العربات ذات الجياد الستة لا تكف عن القدوم والانصراف من بيت الكونتس روستوف الكبير فى بوفارسكى Bovarsky ، الذى كان معروفاً لجميع أهل موسكو . وكانت الكونتس وابنتها الكبرى الحسناء

جالستين فى قاعة الاستقبال مع ضيوفهما ، الذين توافدوا فى سيل لا ينقطع لتقديم التهنئة للسيدة ربة البيت .

وكانت الكونتس امرأة نحيلة الوجه ، شرقية السمات ، فى الخامسة والأربعين من عمرها ، وواضح عليها الإعياء من كثرة الحمل والولادة . وكانت قد رزقت باثنى عشر طفلا . وكان البطء المتعمد فى حركاتها وحديثها ، بسبب ضعف صحتها ، يضفى عليها وقاراً يوحى بالاحترام . وجلست مع الأم وكبرى بناتها الأميرة أنا ميهايلوفنا درو بتسكوى ، بصفتها الصديقة الحميمة للأسرة ، لتساعد فى العمل واستقبال الضيوف والحفاوة بهم . وكان أعضاء الأسرة الأحدث سناً فى الحجرات الداخلية ، لأنهم رأوا من غير اللائق المشاركة فى استقبال الضيوف . وكان الكونت يستقبل الضيوف ويودعهم إلى الباب ، ويدعوهم جميعاً بلا استثناء للغداء .

وكان يقول للجميع بلا تفرقة بين الرتب والمقامات التى تقل عنه أو ترتفع فوقه :

ـ أنا شاكر لك جداً جداً يا عزيزى (أو عزيزتى) بالأصالة عن نفسى وبالنيابة عن عزيزتى الغاليتين اللتين نحتفل اليوم بعيد اسمهما . وتفضل (أو تفضلى) بالحضور للغداء . وسأستاء كثيراً إن لم تحضروا . وأوجه لكم هذه الدعوة المخلصة باسم الأسرة كلها يا عزيزى (أو عزيزتى) ..

وكانت هذه العبارات مشفوعة ، بلا تغيير ، بتعبيرات واحدة

من وجهه الحليق الممتلئ المرح ، ومقرونة بنفس الضغطة على اليد، والانحناءات القصيرة المتكررة . وكلما صحب سيداً أو سيدة إلى الباب عاد إلى بقية ضيوفه فى قاعة الاستقبال ، ويحرك مقعداً ، ثم يجلس منفرج الساقين ، واضعاً يديه على ركبتيه ، ويهتز يمنة ويسرة وهو يتفوه بعبارات مكررة عن الجو ، أو يقدم نصائح صحية ، باللغة الروسية أحياناً ، وأحياناً أخرى بفرنسية رديئة جداً ، ثم ينهض واقفاً، وعليه سيما التعب ، ولكنه مصر على أداء واجبه ، فيشيع الضيوف إلى الباب ، وهو يسوى بقايا شعره الأشيب على مقدمة صلعته ، ومرة أخرى يلح على المنصرفين فى العودة لتناول الغداء .

وكان أحياناً — فى طريق عودته من الباب إلى حجرة الاستقبال — يمر بحجرة المؤن وحجرة كبير الخدم إلى أن يدخل قاعة كبيرة أرضيتها من الرخام ، أعدت فيها مائدة لثمانين مدعواً ، وينظر إلى السقاة الذين كانوا يحضرون الفضيات وصحاف الصينى ويبسطون مفارش الدمقس ، وينادى ديمترى فاسيليفتش ، وهو شاب من أسرة طيبة كان يقوم بعمل مدير إدارة البيت ، ويقول له :

— والآن يا متنكا Mtenka ! إحرص على أن يكون كل شيء كما ينبغى ! نعم ، هكذا هكذا ! ..

وينظر حوله بفرح إلى المائدة الممدودة إلى أقصى طولها ، ويقول :

— إن الخدمة هى أهم شيء ! هكذا . هكذا ...

ثم ينصرف كما جاء إلى قاعة الاستقبال وهو يصعد زفرة ارتياح ورضا .

وصاح صاحب الكونتس الضخم بصوته الجهير عند باب القاعة :

— ماريا لفوفنا كاراجين وابنتها Maria Lvovna !

وفكرت الكونتس لحظة ثم أخذت قليلا من السعوط من علبة ذهبية عليها صورة زوجها ، وقالت :

— لقد تعبت من كل هؤلاء الزوار . هاتان آخر من سأستقبل . إنها متكلفة جداً . أدخلها !

وكان صوتها يفيض تعاسة وأسى ، وكأنها تقول :

— هيا ! وأجهزوا على ما بقى منى !

ودخلت سيدة طويلة بدينة متغطرسة ومعها ابنتها الباسمة المستديرة الوجه ، ولثوبيهما الحريريين حفيف ، إلى قاعة الاستقبال .

وقال الصوت النسائى فى هذر الثرثرة :

— يا عزيزتى الكونتس ! منذ زمن طويل لم نرك ... لقد سقطت المسكينة إعياء فى الحفل الراقص عند آل رازومفسكى ... آه ! كم أنا سعيدة !

واختلط حفيف الأثواب بصوت تحريك الكراسى ، واتصل ذلك النوع من الحديث إلى أن تتاح الفرصة للزائرة للانصراف عند أول توقف فى سيل الكلام ... لتخرج مع ابنتها إلى البهو وترتدى عباءتها وتنصرف فى عربتها المطهمة . وكان الحديث عادة يدور حول

أهم أحداث المدينة ، ومرض الثرى الكبير الكونت المسن بيزوهوف ، وهو الرجل الذى كان مشهوراً بجماله فى أيام الإمبراطورة كاترين ، ومشهوراً أيضاً بابنه غير الشرعى « بيير » الذى كان تصرفه غير لائق فى سهرة أنا بافلوفنا . وقالت الزائرة :

– أنا متألمة جداً للكونت المسكين . إن صحته فى حالة خطرة ، وها هو الآن يصاب بخيبة أمل وحزن بسبب ابنه . وأخشى أن يتسبب هذا فى موته !

فقالت الكونتس ، وكأنها لا تعرف ما الحكاية ، مع أنها سمعتها خمس عشرة مرة على الأقل :

– لماذا ؟ ماذا حدث ؟

فقالت الزائرة :

– هذه نتيجة التعليم فى الخارج ! فعندما كان فى الخارج ترك لهذا الفتى الحبل على الغارب ، والآن يقولون إنه وهو فى بطرسبرج فعل أموراً شائنة جداً ، حتى إنه أبعد من العاصمة تحت حراسة الشرطة !

فقالت الكونتس :

– حقــاً ؟

فقالت الأميرة أنا ميهايلوفنا :

– لقد أساء اختيار قرنائه . ابن الأمير فاسيلى ، هو وشاب يقال إن اسمه دولوهوف ، الله أعلم ماذا صنعوا من الأهوال والشناعات ،

وقد لقى الاثنان جزاءهما ، فأنزلت رتبة دولوهوف إلى نفر ، أما ابن بيزوهوف فنفى إلى موسكو . وأما أناتول كوراجين ... فقد تمكن والده من إخراس الألسنة على نحو ما ، إلا أن الفتى أبعد عن بطرسبرج أيضاً : .

فسألت الكونتس :

– لماذا ؟ ماذا صنعوا ؟

فقالت الزائرة :

– إنهم أوغاد ، ولا سيما دولوهوف . إنه ابن ماريا إيفانوفنا دولوهوف ، وهى امرأة فاضلة جداً ، كما تعلمين ، ولكن تصورى أن ثلاثتهم وضعوا يدهم على دب بطريقة ما ، لا أحد يدرى من أين أتوا به ، وأخذوه معهم فى عربة ليتوجهوا إلى بيت إحدى الممثلات . وجرى الشرطة ليمنعوهم ، فأخذوا ضابط الشرطة ، وقيدوه ظهراً لظهر مع الدب ، وألقوه فى النهر . وسبح الدب وضابط الشرطة فوق ظهره !

فصاح الكونت وهو لا يتمالك نفسه من الضحك :

– لا بد أن منظره كان مضحكاً جداً يا عزيزتى ؟

– يا لها من فظاعة ! وماذا فى هذا مما يمكن أن يضحك يا كونت ! إلا أن السيدات أنفسهن لم يتمالكن أنفسهن من الضحك ، وواصلت الضيفة كلامها :

– لقد تعبوا جداً فى إنقاذ الرجل المسكين . وهذه هى التسلية

الذهنية التى تعلمها ابن الكونت بيزوهوف فى الخارج ويمارسها هنا ! مع أن الناس يقولون إنه تعلم تعليماً راقياً وفيه ذكاء وبراعة . وهذه عاقبة التعليم الأجنبي . وأتمنى ألا يستقبله أحد هنا برغم ثرائه العريض. وقد حاولوا تقديمه إلى . ولكنى رفضت بحزم . فعندى بنات !

فسألت الكونتس ، مشيحة عن الفتاتين اللتين بدا عليهما أنهما لم تسمعا ما قيل :

— وماذا يدعوك إلى القول بأنه ثرى هذا الثراء العريض ؟ ليس للكونت بيزوهوف إلا أبناء غير شرعيين ، وأعتقد أن بيير ابن غير شرعى أيضاً .

فهزت الضيفة يديها وقالت :

— أظن أن له عشرين ابناً غير شرعى !

فتدخلت الأميرة أنا ميهايلوفنا فى الحديث لتدلل على صلاتها ومعرفتها بكل تفصيلات ما يدور فى المجتمع الراق ، وقالت بهمس ذى معنى خاص :

— المسألة هكذا . إننا جميعاً نعرف سمعة الكونت كيريل فلاديمو روفتش بيزوهوف .. فقد بات لا يدرى كم عدد أبنائه حقاً ، ولكن بيير هو ابنه الأثير لديه .

فقالت الكونتس :

— ما كان أشد وسامة ذلك الرجل ! لقد رأيته فى العام الماضى ، فلم أر أبهى منه منظراً فى حياتى كلها !

فقالت أنا ميهايلوفنا :

« لقد تغير الآن كثيراً . آه لقد كنت أقول إن الوارث الشرعى الوحيد لثروة الكونت وأملاكه هو الأمير فاسيلى ، قريبه عن طريق زوجته ، ولكن الأب شديد التعلق ببيير ، ولذا اهتم بتعليمه ، وكتب إلى الامبراطور ... بحيث لايستطيع أحد أن يقول فى حالة وفاته (وهو مريض مرضاً شديداً ووفاته متوقعة فى كل لحظة ، وقد حضر الطبيب لوران Lorrain من بطرسبرج خصيصاً من أجله) إلى من ستئول هذه الأملاك الضخمة ، إلى بيير أم إلى الأمير فاسيلى . أربعون ألف عبد من رقيق الأرض وملايين الأموال ، وأنا أعرف هذا خير المعرفة ، لأن الأمير فاسيلى نفسه قال لى هذا ، ثم إن الكونت ابن خال من الدرجة الثالثة لى شخصياً عن طريق أمى ، وهو اشبين بوريس ابنى » .

وكان واضحاً أنها تعلق أهمية على هذه الصلة . وقالت الزائرة :

— لقد وصل الأمير فاسيلى إلى موسكو أمس ، وقيل إنه فى جولة تفتيشية .

فقالت الأميرة :

— هذه مجرد ذريعة . لقد جاء فى الحقيقة ليرى الكونت بعد أن سمع باشتداد علته .

وقال الكونت :

— ولكن حكاية الدب هذه ظريفة جداً .

ولما وجد الزائرة الأم لا تلتفت إليه وجه كلامه إلى الفتاتين ، واستطرد :

– تصورن منظر ضابط الشرطة وهو يركل ويلوح ! لابد أن منظره كان مضحكاً جداً ، إنى أستطيع أن أتخيله !

وراح يحاكى حركات ضابط الشرطة المربوط فى الدب وهو فى النهر ، كما تخيلها ، ثم انطلق فى ضحك جهير وجسمه كله يهتز ، كما يفعل الناس الذين يأكلون دائماً كثيراً ، ويكثرون من الشراب على الأخص .

والتفت إلى الزائرة وابنتها وكرر لهما دعوته :

– أرجوكما الحضور للغداء معنا ..

– ٨ –

وأعقب ذلك صمت ، ونظرت الكونتس إلى زائرتها باسمة بلطف ، ولكنها لم تخف أنها لن تستاء لو نهضت هذه الزائرة لتنصرف . وكانت الابنة قد بدأت بالفعل تعبث بثنايا ثوبها وهى تنظر مستفهمة من والدتها ، عندما سمعوا فى الحجرة المجاورة صوت عدد من البنات والأولاد يجرون إلى الباب ، وصوت كرسى يقع على الأرض ، ودخلت فتاة فى الثالثة عشرة وهى تجرى مخفية شيئاً ما فى تنورتها القصيرة ، ثم وقفت فجأة فى وسط الحجرة . ولا شك أنها اندفعت هكذا فى جريها دون أن تقدر أنها ستصل إلى هذا الموضع . وفى نفس اللحظة ظهر فى فرجة الباب طالب على ياقته شريط قرمزى ، وضابط

شاب فى الحرس ، وإلى جواره فتاة فى الخامسة عشرة بدينة وردية الخدين فى ثوب فضفاض .

ونهض الأمير واثباً ، وهو يهتز من أثر الضحك ، وطوق الفتاة الصغيرة بذراعيه ، وصاح مقهقهاً :

– ها هى ! صغيرتنا العزيزة فى يوم عيدها .

وقالت الكونتس ، متصنعة الشدة ، لزوجها :

– عزيزى ! هناك وقت لكل شىء ! إنك دائم التدليل لها يا إيلى

وقالت الزائرة للبنت :

– صباح الخير يا عزيزتى ! يا لها من طفلة لذيذة !

واتجهت بعبارتها الأخيرة للأم .

وكانت الفتاة الصغيرة سوداء العينين ، فياضة بالحيوية ، بفمها الواسع ، وكتفيها العاريتين اللتين تهتزان بلهاثها من أثر الجرى ، وقد مشطت شعرها إلى الوراء ، وذراعاها العاريتان نحيلتان ، وساقاها تطلان من سراويلها المزركشة بالدانتلا ، وفى قدميها خف مفتوح ، فهى فى تلك السن التى لم تعد فيها الفتاة طفلة ، ولكنها لم تصر بعد شابة . وتملصت من أبيها وجرت نحو أمها ، ولم تلق بالها إلى ملاحظاتها القاسية ، فأخفت وجهها المحتقن فى منديل أمها المصنوع من الدنتلا ، وانفجرت ضاحكة . وفيما هى تضحك تفوهت ببعض العبارات المتقطعة عن الدمية التى كانت تطل من تنورتها :

– أترين ؟ ... دميتى ... ميمى ... Mimi أترين ؟

وسقطت فى حجر أمها ، وانفجرت فى نوبة الضحك ..

ولم تستطع أن تقول ما هو أكثر من هذا ، وبدا لها هذا كله مضحكاً جداً ، وسقطت فى حجر أمها ، وانفجرت فى نوبة الضحك ، حتى أن الجميع ، بما فيهم الزائرات المتزمتات ، لم يتمالكن أنفسهن من الضحك أيضاً ...

فقالت الأم وهى تدفعها بعيداً عنها متصنعة الغضب !

– هيا ! إجرى وابتعدى عنا بهمجيتك !

ونظرت إلى الزائرة وقالت :

– هذه ابنتى الصغيرة ..

ورفعت نتاشا Natasha وجهها عن منديل أمها لحظة ، ونظرت إليها من خلال دموع الضحك ، ثم أخفت وجهها مرة أخرى .

ووجدت الزائرة نفسها مضطرة للإعجاب بهذا المشهد العائلى ، ورأت من الملائم أن تشارك فيه ، فقالت موجهة كلامها إلى نتاشا :

– خبرينى يا عزيزتى ، كيف حصلت على دميتك ميمى ؟ أظنها ابنتك ؟

ولم تحب نتاشا نبرة التنازل التى خاطبتها بها الزائرة كأنها طفلة ، فلم تجبها ، بل حدقت فيها بجد ...

وفى هذه الأثناء كان كل الجيل الجديد : بوريس الضابط ، ابن أنا ميهايلوفنا ، ونيقولاى Nikolai الطالب وهو الابن الأكبر للكونت ، وسونيا Sonia بنت أخت الكونت ،

وبتيـــا Petia الصغير ابنـــه الأصغر ، كانوا قد دخـــلوا حجرة الاستقبال ، ويحاولون بلا شك المحافظة على حدود اللياقة والاحتشام ومقاومة ما بدا على وجوههم من مرح زائف تفيض به ملامحهم جميعاً. ولا شك أن الحديث فى الحجرات الخلفية للبيت – من حيث اندفعوا بهذا الطيش – كان بهيجاً ومسلياً أكثر من هذه الثرثرة التى تجرى فى حجرة الاستقبال عن فضائح المدينة والجو والكونتس أبراكسين . وفيما بين لحظة وأخرى كانوا يتخالسون النظرات ، ولا يكادون يكتمون الضحك .

أما الشابان : الطالب والضابط ، فهما صديقان منذ الطفولة ، ومن سن متقاربة جداً ، وكلاهما جميل الشكل ، ولكنهما ليسا متماثلين : فبوريس كان طويلا أشقر الشعر له ملامح منتظمة رقيقة وسحنته تدل على رباطة الجأش التى تزيد جماله وقاراً . أما نيقولاى فكان يافعاً متموج الشعر ، ليس طويلا ، وسيماه تدل على الصراحة والبشاشة . وفوق شفته العليا بدأت تظهر بوادر شارب أســود ، ومحياه كله يشى بالاندفاع والحماسة . واحمر وجه نيقولاى بشدة عندما دخل قاعة الاستقبال . وكان واضحاً جداً أنه يبحث عن شىء مناسب يقوله ولكنه لم يعثر على شىء . أما بوريس فعلى العكس منه شعر على الفور بأنه على سجيته وتكلم فى يسر ودعابة عن الدمية ميمى ، وقال إنه عرفها عندما كانت صغيرة وقبل أن يتحطم أنفها ، وأنها كبرت فى مدى هذه السنوات الخمس التى عرفها فيها ، وحكى كيف شـــج

رأسها ذات يوم . وكان وهو يقول ذلك ينظر إلى نتاشا ، فأشاحت عنه نتاشا ونظرت إلى أخيها الأصغر الذى كان عابس الوجه وجسمه يهتز من شدة الضحك الصامت . عاجزاً عن تمالك نفسه ، فطفرت نتاشا من موضعها وفرت من الحجرة بأسرع ما حملتها ساقاها الصغيرتان. أما بوريس فلم يضحك . وقال يخاطب أمه باسماً :

– كنت تنوين الخروج يا ماما ، أليس كذلك ؟ أتريدين العربة ؟

فقالت أمه باسمة :

– نعم أريدها . اذهب ومرهم أن يعدوها .

فمشى بوريس نحو الباب ، واقتفى أثر نتاشا . وجرى الصبى البدين بسرعة فى أعقابهما ...

– ٩ –

وبقى من الشباب فى قاعة الاستقبال ، فيما عدا ابنة الكونتس الكبرى (التى كانت أكبر بأربع ســنوات من أختها وتتصرف كالكبار تماماً) والفتاة الزائرة ، نيقولاى وسونيا ابنة أخت الكونت. وكانت سونيا سمراء نحيفـة لها عينان ناعستان لهما أهداب طويلة وشعر أسود غزير مجدول فى ضفيرتين حول رأسها ، وبشرتها شاحبة قليلا ، وذلك يبدو على الخصوص فى ذراعيها العاريتين النحيلتين العضليتين ، وفى عنقها ، ولدانة حركاتها ، ونعومة أطرافها ، والاحتشام والحذر فى أسلوبها عموماً ، مما يوحى بأنها قطة لطيفة صغيرة ستغدو يوماً ما قطة حسناء . ويبدو أنها رأت من اللائق أن تبدى اهتماماً بالحديث العـــام

الدائر فى الحجرة ، وأنه يجدر بها أن تبتسم ، ولكن عينيها دارتا تحت أهدابهما الغزيرة الطويلة نحو ابن خالها الذى كان على وشك الذهاب للانضمام إلى الجيش ، فى وله شديد جدير بيفاعتها ، فلم تنطل ابتسامتها على أحد ، وكان واضحاً أن الهريرة ما جثمت هناك إلا ريثما تتحين فرصة تلعب فيها مع ابن خالها ، ولذا تمنت لو حذت حذو بوريس وناتاشا وغادرت قاعة الاستقبال .

وقال الكونت ، محدثاً الزائرة ، ومشيراً إلى ابنه نيقولاى :

– نعم يا عزيزتى . فهاهو صديقه بوريس قد عين ضابطاً ، ولأنه شديد التعلق به فهو لا يريد أن يبقى وحده هنا ، وقرر ترك الجامعة وأباه المسن المسكين ليذهب إلى الجيش يا عزيزتى . مع أنه كان هناك مكان معد له فى إدارة المحفوظات ، على أحسن وجه ممكن . أليست هذه هى الصداقة ؟

فقالت الزائرة :

– ولكنهم يقولون إن الحرب أعلنت ، كما تعلم .

فقال الكونت :

– إنهم يقولون هذا منذ مدة طويلة ، وسيقولونه ويعيدون قوله المرة بعد المرة . وسيظل الحال على ما هو عليه ، ولكن هكذا الصداقة يا عزيزتى ! وسينضم ابنى إلى الهوسار Hussar .

ولم تدر الزائرة ماذا تقول ، فهزت رأسها . واحمر وجه نيقولاى بشدة وقال مستنكراً ما قاله أبوه كأنه سبة شائنة :

– ليس الدافع هو الصداقة على الإطلاق . ليس الصداقة ، بل السبب أننى أشعر بميل إلى الجندية .

والتفت صوب ابنة عمته والفتاة الزائرة ، فنظرت كلتاهما إليه مؤيدتين . وقال الكونت وهو يهز كتفيه ، وتكلم فى دعابة عن أمر لا شك أنه كان يحزنه كثيراً :

– إن شوبرت Schubert سيتعشى معنا الليلة ، وهو مقدم أورطة بافو لوجرادسكى للهوسار ، وكان هنا فى إجازة ، وسيأخذه معه . لا حيلة فى هذا .

فقال الابن :

– لقد قلت لك من قبل يا بابا انك إن كنت لا تريدنى أن أذهب فسوف أبقى . ولكنى أعرف أننى لا أصلح لأى شىء سوى الجيش . فأنا لست دبلوماسياً ، ولا موظفاً حكومياً . ولست ماهراً فى إخفاء مشاعرى .

ورمى سونيا والفتاة الزائرة بنظرة دلال . وأوشكت الهريرة أن تنفجر فى مرحها الزائط وتداعبه ، مبدية طبيعتها القططية . وقال الكونت الشيخ :

– لا بأس . لا بأس ! إنه دائماً يحتد ويتحمس هكذا . فبونابرت قد أدار رءوسهم جميعاً ، فكلهم يحلمون بصعوده من ملازم إلى إمبراطور . ومن يدرى لعل هذا يحدث مرة أخرى ... إن شاء الله !

ولم يفطن الكونت إلى ابتسامة الزائرة الهازئة .

وبينما دار حديث الكبار حول بونابرت ، وجهت « جولى » — ابنة مدام كاراجين الزائرة — الحديث إلى روستوف الشاب . فقالت وهى تمنحه ابتسامة رقيقة :

— خسارة أنك لم تكن فى حفلة آل ارهاروف Arharov يوم الخميس ، فقد سئمت جداً الحفلة بدونك .

وأرضى قولها غرور الشاب ، فاقترب منها بابتسامة دلال واشتبك مع جولى Julie فى حوار ثنائى باسم ، غير مدرك أن ابتسامته وجهت طعنة إلى قلب سونيا الغيور ، التى صار وجهها فى لون القرمز وتظاهرت بالابتسام المغتصب . وفى منتصف حديثه مع جولى كان يلتفت وينظر إليها ، فرشقته سونيا بنظرة غضب شديد ، ولم تكد تغالب دمعها ، وإن ظلت الابتسامة المغتصبة على شفتيها ، فنهضت وغادرت الحجرة . وعندئذ زايلت نيقولاى كل حيويته ، وانتظر أول توقف فى الحديث ، وغادر الحجرة مهموم المحيا ليبحث عن سونيا .

وقالت أنا ميهايلوفنا مشيرة إلى قامة نيقولاى وهو خارج :

— لله كم ترتسم مكنونات قلوب الشباب على وجوههم !

ثم قالت مثلا فرنسياً معناه أن القرابة الحميمة مجاورة خطرة !

فقالت الكونتس عندما غابت الشمس التى كانت قد غمرت الحجرة بقدوم الشباب :

— أجل !

وكانت بذلك كأنما تجيب على السؤال الذى لم يوجهه إليها أحد، ولكنه دائماً فى ذهنها :

— ما أكثر المحن التى تحملناها لنحصل على سعادتنا الآن بهم ! ومع هذا نشعر الآن بالفزع عليهم أكثر من الفرح بهم ! فالمرء فى رعب دائم ! ولا سيما فى هذه السن التى تكثر فيها المخاطر للبنين والبنات على السواء !

فقالت الزائرة :

— كل شىء يتوقف على النشأة والتربية !

فقالت الكونتس :

— معك حق ! لقد كنت حتى الآن صديقة أطفالى ونعمت دائماً بثقتهم .

فكررت الكونتس بذلك غلطة والدين كثيرين يتخيلون أن أولادهم لا يخفون عنهم سراً . واستطردت :

— وأعلم أننى سأكون دائماً أكبر مستودع لأسرار أولادى وثقتهم . وأنا على يقين أن نيقولاى بطبعه المندفع الحار (الفتيان هم الفتيان) فلن يقع فى مثالب شباب بطرسبرج على كل حال ، مهما تهور ...

وأيدها الكونت قائلا :

— إنهم نعم الأطفال . نعم الأطفال ! تصورى إصراره على أن يكون من الهوسار ! ولكن ماذا تتوقعين يا عزيزتى ؟

فقالت الزائرة :

– وما أبدع ابنتك الصغرى ! كلها مرح وشيطنة !

فقالت الكونت :

– نعم . هكذا هى . إنها على غرارى ! وصوتها ما أحلاه ! بصرف النظر عن كونها ابنتى ، ولكنى الحق أقول لك إنها ستكون مغنية . ستكون « سالومى » أخرى ! وقد أحضرنا معلماً إيطالياً ليعطيها دروساً .

– أليس الوقت مبكراً جداً لهذا ؟ يقولون إن الصوت يضار إذا درب فى هذه السن .

فقالت الكونت :

– أوه ! لا ! ليس مبكراً أبداً . أمهاتنا كن يتزوجن فى الثانية عشرة والثالثة عشرة .

فقالت الكونتس ، باسمة بنعومة وهى ترمق والدة بوريس ، وكأنها ترد على سؤال فى ذهنها :

– أوه ! إنها عاشقة لبوريس فعلا ! فما قولك فى هذا ؟ وأنت تعلمين إننى لو كنت صارمة معها ، ومنعتها ... فالله وحده يعلم ما كانا يصنعانه فى الخفاء !

وكانت الكونتس تعنى بهذا أنهما قد يتبادلان القبلات . واستطردت :

– أما هكذا فأنا أعرف كل كلمة تتفوه بها ، وستأتى إلى الليلة وتقول لى كل شىء من تلقاء نفسها . ولعلى أدللها ، ولكن هذه

أفضل طريقة فى نظرى . أما ابنتى الكبرى فقد ربيتها بمزيد من الصرامة .

فقالت الابنة الكبرى ، الكونتس فيرا الوسيمة باسمة :

– نعم ! لقد تربيت بمزيد من الصرامة :

ولكن الابتسامة لم تضف إلى وجهها بشاشة ، بل جعلته يبدو متكلفاً . لقد كانت فيرا جميلة المنظر ، وليست غبية ، ومجدة فى دروسها ، وحسنة التعليم ، ولها صوت حسن ، وكلامها لائق وصادق ، ولكن الجميع كانوا – لسبب ما – يتعجبون لماذا قالته ، فنظرت إليها الكونتس والزائرة بشىء من الحرج ، وقالت الزائرة :

– الناس دائماً أبرع فى تربية أولادهم الكبار ، لأنهم يريدون أن يجعلوا منهم شيئاً خارقاً .

فقال الكونت :

– لن نخفى أخطاءنا يا عزيزتى ! زوجتى الكونتس كانت بارعة جداً مع فيرا . ولكن ماذا فى هذا ؟ لقد شبت على خير وجه ..

وغمز بعينه إلى ابنته فيرا Vera ونهضت الضيفتان وانصرفتا ، ووعدتا بالقدوم للغداء . وقالت الكونتس متنهدة :

– ما أثقل ظلهم ! أهكذا يطيل الناس الجلوس .

– ١٠ –

ولما جرت نتاشا خارجة من حجرة الاستقبال ، لم تجر إلا إلى « الصوبة » . وهناك وقفت تصغى لما يدور من حديث فى حجرة الاستقبال ، وتنتظر خروج بوريس . وبدأ صبرها ينفد ، فدقت

الأرض بقدمها وكادت تبكى لعدم حضوره فوراً ، وإذا بها تسمع وقع أقدام الشاب قادماً خلسة ، وبحذر ، لا مسرعاً ولا مبطئاً أكثر مما يجب . واندفعت نتاشا خارجة وتوارت بين البراميل التى بهــا الشجيرات .

ووقف بوريس ساكناً فى وسط المكان ونظر حوله ، ونفض غباراً علق بكم كسوته العسكرية ، وتوجه إلى المرآة وتفحص محياه الوسيم . وظلت نتاشا ملتزمة الهدوء ، تنظر من مكمنها ، فى انتظار ما عساه يصنعه . ووقف برهة أمام المرآة . وابتسم لصورته المنطبعة فيها ، ثم اتجه صوب الباب الآخر . وكانت نتاشا على وشك أن تناديه ، ولكنها غيرت رأيها ، وقالت لنفسها :

– ليبحث عنى .

وما كاد بوريس يخرج من الباب الآخر حتى دخلت سونيــا محمرة الوجه وهى تغمغم شيئاً بغضب من خلال دموعها . وقمعت نتاشا اندفاعتها الأولى لتجرى نحوها ، وظلت فى مكمنها ، وكأنها لبست طاقية الإخفاء ، وراحت ترقب ما يجرى فى الدنيا . وبدأت تحس لهذا متعة من نوع جديد . وكانت سونيا تهمهم بشىء فى غضب وهى تنظر صوب حجرة الاستقبال ، وانفتح الباب ودخل نيقولاى ، وقال وهو يجرى نحوها :

– سونيا ! ماذا جرى ؟ كيف أمكنك ...

ونشجت سونيا بالبكاء وقاطعته :

– لا شىء ! لا شىء ! دعنى وشأنى !

– كلا ! أنا أعرف السبب !

– عال جداً ! هذا أفضل . وفى وسعك أن تعود إليها !

فقال نيقولاى وهو يتناول يدها :

– سونيا ! كلمة واحدة ! كيف يمكنك أن تعذبى نفسك وتعذبينى لمجرد وهم ؟

ولم تجذب سونيا يدها ، وكفت عن البكاء .

ونظرت نتاشا – وهى جامدة فى مكانها لا تتحرك ، ولا تكاد تتنفس – نظرت بعينيها اللامعتين من مكمنها وقالت فى نفسها :

– ترى ماذا سيحدث الآن ؟

وقال نيقولاى :

– أنا لا أبالى بأى شىء فى العالم ! أنت بالنسبة لى كل شىء ! وسأثبت لك هذا !

– أنا لا أحب أن تتكلم هكذا .

– لن أتكلم إذن . تعالى . سامحينى .

وجذبها إليه وقبلها .

فقالت نتاشا فى نفسها :

– أوه . هذا جميل !

وعندما خرج الاثنان من الحجرة تبعتهما ونادت بوريس ، بنظرة ذات معنى :

– بوريس ! تعال هنا ! هناك شىء أريد أن أقوله لك . هنا ! هنا !

وقادته إلى حجرة « الصوبة » ، إلى حيث كانت مختبئة وراء الشجيرة ، فتبعها بوريس باسماً ، ثم سألها :

– ما هذا الشىء الذى تريدين قوله لى ؟

وارتبكت قليلا ، ونظرت حولها ، ولما رأت دميتها ملقاة فوق البرميل التقطتها وقالت :

– قبل الدمية !

فنظر بوريس إلى وجهه المتلهف ولم يقل شيئاً ، فقالت :

– ألا تريد تقبيلها ؟ إذن تعال هنا .

وقادته إلى مكان أبعد بين الشجيرات وقذفت بالدمية ، وهمست له :

– اقترب أكثر ! اقترب !

وأمسكت بذراعى الضابط من فوق طرف كمه ، وبدا على وجهها الجد والرهبة ، وهمست بصوت لايكاد يسمع ، وهى تنظر إليه من بين أهدابها باسمة ، وهى تكاد تبكى من الإثارة :

– أتحب أن تقبلنى ؟

فاحمر وجه بوريس ، وقال :

– ما أسخفك !

وانحنى فوقها وزاد احمرار وجهه ، ولكنه لم يصنع شيئاً ، وكأنه

ينتظر ما يكون منها بعد هذا . وأخيراً قفزت هى فوق برميل ، فصارت وهى واقفة أطول منه ، وطوقته بذراعيها ، بحيث أحاطت ذراعاها الناحلتان العاريتان بعنقه ، وطوحت شعرها إلى الوراء بحركة حادة من رأسها ، وقبلته فوق شفتيه ، ثم انفلتت مبتعدة عنه بين اصص الأزهار على الجانب الآخر ووقفت مرفوعة الرأس ، فقال :

– نتاشا . أنت تعرفين أنى أحبك ، لكن ...

فقاطعته قائلة :

– أنت تحبنى .

– نعم . ولكنى أرجوك ، لا يصح أن نصنع هذا ... بعد أربع سنوات أخرى سيتسنى لى أن أطلب يدك ...

وفكرت نتاشا لحظة ، ثم قالت وهى تعد على أصابعها الصغيرة :

– ثلاثة عشر . أربعة عشر . خمسة عشر . ستة عشر .

ثم قالت :

– حسن جداً . اتفقنا ؟

وفاض وجهها المستثار بابتسامة سرور وارتياح .

فقال بوريس :

– اتفقنـــا !

فقالت الفتاة الصغيرة :

– إلى الأبد ؟ حتى الموت ؟

وأمسكت بذراعه فى فرح ومشت بجواره فى هدوء إلى الحجرة المجاورة .

- ١١ -

بلغ من تعب الكونتس وإرهاقها لكثرة من استقبلت من الزوار أنها أصدرت أوامراها بأنها لن ترى أحداً بعد ذلك ، وقيل للبواب أن يدعو للغداء كل من يأتى للزيارة والتهنئة ، وكانت الكونتس تواقة إلى خلوة مع صديقة طفولتها « أناميهايلفنا » التى لم ترها وحدها كما يجب منذ عودتها من بطرسبرج . واقتربت أنا ميها يلوفنا بوجهها المكدود الودود من مقعد الكونتس المريح ، وقالت لها :

– سأكون معك صريحة جداً . فلم تبق لنا صديقات حميمات كثيرات الآن . لذا ازداد إعزازى لصداقتك .

ونظرت أنا ميهايلوفنا إلى « فيرا » وسكتت ، فضغطت الكونتس على يد صديقتها . وقالت لابنتها الكبرى ، وكان واضحاً أنها ليست الابنة الأثيرة لديها :

– فيرا . كيف لا تدركين شيئاً مما يدور حولك ؟ ألا ؟ أن وجودك هنا غير مطلوب ؟ اذهبى إلى أختك أو ...

فابتسمت الكونتس الصغيرة بازدراء ، ولم يبد عليها أقل شعور بالخزى ، وقالت :

– لو كنت أخبرتنى ياماما لكنت انصرفت منذ مدة طويلة ..

وانصرفت إلى حجرتها الخاصة ، ولكن عند مرورها بحجرة

الأرائك لاحظت وجود زوجين جالسين بصورة متماثلة فى النافذتين ، فتوقفت وابتسمت فى احتقار للمنظر . وكانت سونيا جالسة لصق نيقولاى الذى كان ينسخ لها أبياتاً من الشعر ، هى أول ما نظم فى حياته . وكان بوريس ونتاشا جالسين فى النافذة الأخرى صامتين عندما دخلت فيرا . ونظرت سونيا ونتاشا صوب فيرا بوجهين سعيدين وناطقين بالذنب .

وكان منظراً لطيفاً يحرك المشاعر أن ترى هاتين الفتاتين غارقتين فى الحب ، ولكن منظرهما فيما يظهر لم ينبه فى قلب فيرا أى شعور جميل . وقالت لنيقولاى :

– كم مرة طلبت منك ألا تأخذ أشيائى . إن لك حجرة خاصة بك .

وأخذت من يده المحبرة . فقال وهو يغمس فيها ريشته :

– لحظة واحدة . لحظة واحدة فقط .

فقالت فيرا .

– إنكم دائماً تصنعون الأشياء فى غير وقتها المناسب . فأنتم أولا اقتحمتم حجرة الاستقبال بصورة جعلت الجميع يخجلون من تصرفكم هذا .

ولأن ما قالته كان صحيحاً تماماً ، لم يجبها أحد ، ونظر كل واحد من الأربعة إلى الآخر فى صمت . وتلكأت هى فى الحجرة والمحبرة فى يدها :

– وما نوع هذه الأسرار وأنتم فى هذه السن ؟ نتاشا وبوريس، وأنتما الاثنان ! هذا كله هراء وسخف !

فقالت نتاشا مدافعة وبكل رقة ولطف :

– وماذا يضيرك من هذا يافيرا ! ؟

وكان واضحاً أنها اليوم أكثر مرحاً ومودة من المعتاد مع الجميع. فقالت فيرا :

– لأنه سخيف جداً . أنا خجلانة منكم . أى نوع من الأسرار ..

فقالت نتاشا وقد ازدادت حماستها :

– كل إنسان له أسراره .. ونحن لا نتدخل بينك وبين بيرج !

فقالت فيرا :

– طبعاً لا تتدخلون ! لأنه لا يمكن أن يترتب على سلوكى أى ضرر . ولكنى سأقول لماما عن سلوكك مع بوربس ...

فقال بوريس :

– نتاليا إلييننشا تتصرف معى على خير وجه . ولا شكوى من جانبى بهذا الخصوص .

فقالت نتاشا بصوت يرتعش غيظاً :

– كف عن الكلام معها يا بوريس ، فأنت دبلوماسى جداً (وكان الأطفال يستخدمون هذا اللفظ بمعنى خاص) هذا شىء متعب حقاً . ولا أدرى لماذا تتحامل على ! ...

ثم قالت موجهة كلامها إلى فيرا :

– إنك لن تفهمينا لأنك لم تهتمى طول حياتك بأحد . أنت بلا قلب . أنت ببساطة « مدام دى جنليس » (وكان هذا اللقب قد أضفاه عليها نيقولاى نكاية بها وزراية) ونشوتك الكبرى الإيقاع بالناس والتسبب فى متاعبهم . ولك على كل حال أن تغازلى بيرج كما يحلو لك !

– أنا على كل حال لا أجرى وراء شاب أمام الزوار ...

فقال نيقولاى :

– ها هى حققت هدفها ، وقالت شيئاً يعكر مزاج كل واحد منا وأزعجت الجميع ! هيا بنا إلى حجرة الأطفال .

ونهض الأربعة ، كسرب من الطيور المروعة ، وغادروا الحجرة ، فقالت فيرا :

– لقد قلتم لى كلمات سمجة ، وأنا لم أقل شيئاً لأحد ...

فتصايحت أصوات من عند الباب :

– مدام دى جنليس ! مدام دى جنليس !

وابتسمت الفتاة الوسيمة التى أثارت هذا السخط والأثر السيء عند الجميع ، وكان واضحاً أنها لم تتأثر بما قيل لها ، واتجهت إلى المرآه ، وسوت منديلها فوق رأسها ، ولما نظرت إلى وجهها الوسيم ازدادت هدوءاً وبروداً ورباطة جأش .

* * *

وفى حجرة الاستقبال كان الحديث ما يزال متصلا .

وقالت الكونتس :

— آه يا عزيزتى . أنا أيضاً ليس كل ما فى حياتى وردياً . أتظنين أنى لا أدرى أنه بالمعدل الذى يجرى حالياً لا يمكن أن تصمد ثروتنا طويلا ؟ وكل هذا بسبب النادى ، وطيبه قلبه . وحتى عندما نقيم فى الريف لا نعرف الراحة ، فلا تنقطع العروض المسرحية وحفلات الصيد والقنص ، والله أعلم ماذا أيضاً . ولكننا لن نقضى وقت فى الحديث عنى . هيا الآن خبرينى كيف تدبرت الأمر . وأنا كثيراً ما أعجب لك يا أنيت ، وكيف تنطلقين وحدك فى سنك هذه إلى موسكو ، وإلى بطرسبرج ، وتقابلين كل الوزراء ، وكل الكبراء ، وتعرفين كيف تناورينهم جميعاً وتداورينهم . إنى معجبة بك حقاً ! والآن خبرينى كيف حدث هذا ؟ أنا شخصياً ما كنت لأستطيع شيئاً من هذا .

فأجابتها الأميرة أنا ميهايلوفنا فى شىء من الزهو :

— آه يا عزيزتى ! وقاك الله الحاجة إلى هذه المواقف ، وأعفاك من أن تكونى فى الحياة أرملة وحيدة ، لا عائل لك ، ولك ابن تحبينه بجنون ! إن المرء يتعلم كيف يصنع عندئذ أى شىء . وقد دربتنى قضيتى على هذا ، وعندما أريد أن أقابل أحداً من كبار القوم أكتب فى رقعة « الأميرة كذا تريد أن تقابل فلاناً » . وأذهب بنفسى فى

عربة أجرة مرتين وثلاثاً وأربعاً — إن لزم الأمر — إلى أن أحصل على ما أريد ، ولا أبالى ماذا يظنون بى !

فسألتها الكونتس عندئذ :

— قولى لى إذن من الذى قابلته لتدبير أمور « بوريس » . فها هو ابنك صار ضابطاً فى الحرس ، فى حين سيذهب ابنى نيقولاى إلى الجيش حامل بيرق ، فليس هناك من يتدبر أموره . من الذى طلبت مساعدته ؟

فقالت الأميرة أنا ميهايلوفنا بحماسة ، وقد نسيت تواضعها وتذللها لكى تصل إلى هدفها :

— الأمير فاسيلى . وكان لطيفاً جداً . وقبل القيام بما يلزم على الفور ، وقدم الالتماس إلى الإمبراطور شخصياً .

فسألتها الكونتس :

— وكيف حاله ؟ هل بدأ يشيخ ، هذا الأمير فاسيلى ؟ إنى لم أره منذ كنا نمثل معاً فى الحفلات المسرحية فى دار آل روميانتزيف وأعتقد أنه نسينى الآن .

وكأنما تذكرت الكونتس يفاعتها ، فابتسمت قائلة :

— كان شديد الاهتمام بى حينذاك !

فأجابتها أنا ميهايلوفنا :

— إنه لم يزل كما هو ، لطفاً ودماثة وبشاشة ، والعظمة وعلو المقام لم يغيرا منه شيئاً ولم يملآه بالزهو . قال لى : « أنا آسف يا أميرة

لأنى لن أستطيع لابنك إلا القليل . وأنا رهن إشارتك » ... نعم يا عزيزتى ، إنه رجل رائع ، وشديد الطيبة مع أقاربه . وأنت تعرفين يا ناتالى مبلغ حبي لابنى ، ولا يمكن أن أحجم عن شىء لأجله ولأجل إسعاده . ومواردى كما تعلمين قليلة .

وهبطت طبقة صوتها فى أسى شديد وأردفت :

– ولذا فأنا الآن فى موقف جد دقيق . وقضيتى التعسة تأكل كل ما عندى ولا أراها تتقدم . حتى لم أعد أملك نصف روبل – كما يقولون – ولا أدرى كيف أتمم تجهيزات بوريس .

وأخرجت منديلها وذرفت عبرات جففتها بسرعة ، واستطردت :

– لا بد لى من خمسمائة روبل ، ولا أملك منها غير ٢٥ ، فأنا فى وضع حرج ... وكل أملى الآن فى الأمير كيريل بيزوهوف ، فإن لم يخف الآن لنجدة ابنه بالعماد – فهو كما تعلمين اشبين بوريس – ويتعهد بشىء من نفقاته ، ولإقامته فى الآلاى ، ستكون كل جهودى قد ذهبت هباء منثوراً ، ولن أستطيع تجهيزه .

وصمتت الكونتس تفكر ، وقالت الأميرة :

– كثيراً ما يخطر لى – ولعلها فكرة آثمة – ها هو الأمير كيريل بيزوهوف يعيش وحيداً .. ولديه كل هذه الثروة الضخمة ... ولماذا يعيش ؟ ... إن حياته عبء عليه ، أما بوريس فها هو يبدأ حياته بلا ثروة ...

فقالت الكونتس :

– إنه يقيناً سيترك فى وصيته شيئاً لبوريس .

– الله أعلم يا عزيزتى ! فإن الكبراء الأثرياء أنانيون جداً ، ولكنى مع هذا سأذهب أنا وبوريس لمقابلته ، وسأشرح له الموقف بوضوح . وليظن الناس بى ما شاءوا ، فلست أبالى ما يقولون عندما يتوقف مستقبل ابنى العزيز على هذه الخطوة .

ونهضت الأميرة واقفة وأردفت :

– الساعة الآن الثانية . وأنتم تتغدون فى الرابعة ، فأمامى متسع من الوقت للركوب إلى هناك ثم العودة .

وبسيماء سيدة من بطرسبرج متعودة على تصريف الأعمال ، وتعرف كيف تستغل كل لحظة ، أرسلت أنا ميهايلوفنا فى طلب ابنها ، وخرجت معه إلى البهو ، وقالت للكونتس التى صحبتها إلى الباب فى همس لم يسمعه ابنها :

– إلى الملتقى يا عزيزتى . وتمنى لى حظاً سعيداً .

وقال الكونت وهو خارج من حجرة المائدة إلى البهو :

– أذاهبة أنت إلى قصر الأمير كيريل Kyril يا عزيزتى ؟ إن كانت صحته أحسن فادعى بيير للغداء معنا . لقد سبق له الحضور إلى هنا وراقص البنات . ادعيه يا عزيزتى . لا تنسى . والآن تعالى وانظرى كيف تفوق اليوم « تراس » على نفسه . وهو يقول إن الكونت أورلوف Orlov لم يحظ قط بغداء كالذى سنحظى به اليوم .

- ١٢ -

قالت أنا ميهايلوفنا عندما وصلت عربة الكونتس روستوف التى تقلها إلى الشارع المفروش بالقش ، ثم إلى الفناء الرحيب الذى فى بيت الكونت كيريل بيزوهوف ، وقد وضعت يدها على يد ابنها فى مداعبة حيية :

– يا عزيزى بوريس . كن لطيفاً وكيساً وشديد الاحترام ، فالكونت كيريل بيزوهوف اشبينك بعد كل شىء ، ومستقبلك يتوقف عليه . تذكر هذا يا عزيزى وكن لطيفاً جذاباً بالطريقة التى تجيدها عندما تشاء ...

فقال ابنها ببرود :

– آه لو كنت أعلم أن هذه الزيارة يمكن أن تتمخض عن شىء سوى المهانة ... ولكنى وعدتك، وسأفعل ما تريدين من أجل خاطرك أنت !

ومع أن العربة كانت واقفة أمام المدخل إلا أن بواب البهو تفحص الأم والابن (ولم يكونا قد أرسلا باسميهما، بل اجتازا الباب الزجاجى مباشرة بين صفين من الأعمدة) ونظر نظرة ذات معنى إلى عباءة الأميرة العتيقة ، وسألهما من يريدان ، الأميرات أم الكونت. ولما سمع منهما أنهما يريدان الكونت ، قال إن فخامته حالته اليوم أسوأ ولذا لا يستطيع فخامته أن يقابل أحداً .

فقال الابن بالفرنسية :

– يحسن بنا الانصراف ..

فقالت الأم بلهجة التوسل ، بالفرنسية أيضاً ، وهى تلمس يد ابنها ، كأنما لمستها تؤثر فيه سلباً أو إيجاباً :

– يا صديقى !؛

فلم يقل الشاب شيئاً ، بل نظر إلى أمه متسائلا من غير أن يخلع معطفه ، وقالت الأم للبواب باستعطاف :

– يا صاحبى ، أنا أعلم أن الكونت كيريل مريض جداً .. وهذا هو سبب حضورى أيها الرجل الطيب ، وكل ما أطلبه هو مقابلة الأمير فاسيلى سرجيفتش .. وهو مقيم هنا ، كما أعلم . فأعلنه بقدومنا .

وبتجهم جذب البواب حبل الجرس الذى رن فى الطابق العلوى ثم انصرف ، وصاح بحاجب يرتدى الفراك جرى هابطاً السلم ، ونظر من مكانه فى أعلى :

– الأميرة درو بتسكوى ، لمقابلة الأمير فاسيلى سيرجيفتش .

وسوت الأم ثنايا ثوبها الحريرى المصبوغ . ونظرت إلى صورتها فى المرآة الفينيسية الطويلة الملصقة بالحائط ، وصعدت بجسارة بساط السلم فى حذائها القديم الذى فقد شكله . والتفتت إلى ابنها تستحث همته بلمس ذراعه :

– لقد وعدتنى يا عزيزى .

ومشى الابن صامتاً مذعناً بجوارها . ودخلا حجرة واسعة ،

يفضى فيها باب إلى الجناح المخصص للأمير فاسيلى .

وفى اللحظة التى وصلت فيها الأميرة وابنها إلى وسط الحجرة وكانا على وشك الاستفسار من حاجب مسن برز عند ظهورهما ، تحرك المقبض البرنزى لأحد الأبواب وظهر منه الأمير فاسيلى فى سترة بيتية من القطيفة ، عليها نجمة واحدة ، يصحبه رجل وسيم أسود الشعر . وكان هذا الرجل هو الدكتور لوران طبيب بطرسبرج الشهير .

وقال له الأمير :

– أهذا مؤكد إذن ؟

فقال الطبيب عبارة لاتينية مشهورة بلثغة فرنسية :

– إن احتمال الخطأ من صفات البشر ، يا أمير .

– حسن جداً . حسن جداً .

ولما رأى الأمير الأميرة وابنها صرف الطبيب بانحناءة ، وفى صمت كله تساؤل تقدم للقائهما . ولاحظ الابن ذلك التعبير البالغ الأسى الذى ظهر على وجه أمه فجأة ، وفى عينيها ، وابتسم خسة وسمعها تقول :

– يا لها من ظروف تعسة نلتقى فيها مرة أخرى يا أمير ... خبرنى كيف حال مريضنا ؟

وتصنعت عدم الفطنة إلى النظرة الباردة الصامتة المطلة من عينى الأمير وملامحه وهو يحملق فيها ، ثم نظر إلى بوريس مستفهماً

بصورة مربكة ، فانحنى بوريس بكل أدب . ولم يرد الأمير فاسيلى على انحناءته بل التفت إلى أنا ميهالوفنا ، وأجاب عن سؤالها بهزة من رأسه وحركة من شفتيه ، تدلان على أسوأ المخاوف على حياة المريض فقالت :

– أهذا ممكن ؟ ما أفظع هذا ! ....

وأردفت مشيرة إلى بوريس :

– هذا هو ابنى ، أراد أن يشكرك بنفسه .

ومرة أخرى انحنى بوريس بأدب ، وقالت أمه :

– صدقنى يا أمير ، إن قلب الأم لن ينسى لك أبداً ما أسديته إلينا ..

فقال الأمير فاسيلى ، وهو يسوى هدب الدانتلا فى سترته – بصوت يفيض هنا فى موسكو إزاء هذه السيدة التى شملها بفضله وتفضله بأكثر مما كان يفيض به فى بطرسبرج ، من إحساس بعلو مقامه وهو فى سهرة أنا بافلوفنا :

– لقد أسعدنى أن أؤدى لك أى خدمة يا أنا ميهالوفنا .

والتفت إلى ابنها وأردف بجد صارم ، وبصوته الذى لا تلوين فيه :

– اجتهد أن تؤدى واجبك فى الخدمة ، وأن تكون جديراً بها . وأنا سعيد برؤياك . أأنت هنا فى إجازة ؟

فقال بوريس غير مبد أى ضيق من لهجة الأمير الصارمة ،

ولا أى رغبة أيضاً فى إطالة الحديث ، بل تكلم برصانة واحترام لفتا نظر الأمير :

– أنا فى انتظار الأوامر كى أنضم إلى آلابى ، يا صاحب الفخامة.

– وهل تعيش مع والدتك ؟

فقال بوريس بنفس التأدب :

– أنا أقيم لدى الكونتس روستوف ، يا صاحب الفخامة .

وقالت أنا ميهايلوفنا موضحة :

– إيليا روستوف ، الذى تزوج من ناتالى شينشين

فقال الأمير فاسيلى بصوته الرتيب :

– أعرف . أعرف . ولم أستطع أبداً أن أفهم كيف استقر رأى ناتالى شينشين على الزواج من هذا الدب ، هذا الجلف ! شخص غبى تماماً وأضحوكة وسخيف . ويقال إنه مقامر أيضاً !

فقالت أنا ميهايلوفنا بابتسامة حزينة ، كأنما تعرف هى أيضاً أن الكونت روستوف يستحق كل هذا النقد المر ، ولكنها تتمنى منه ألا يقسو على المسكين :

– ولكنه رجل فاضل جداً يا أمير ..

وبعد لحظة صمت أردفت وقد عاد الأسى الشديد إلى محياها المضنى :

– وماذا يقول الأطباء ؟

فقال الأمير :

– يقولون إن الأمل ضئيل .

فقالت بلهجة من تتوقع أن الأمير فاسيلى يسعده أن يسمع ما تقول :

– وأنا التى كنت أتمنى أن أشكر عمى مرة أخرى على كل مكارمه وعطفه على وعلى بوريس ، فهوا شبينه – أبوه فى العماد .

وفكر الأمير فاسيلى لحظة ثم قطب جبينه . وأدركت أنا ميهايلوفنا أنه يخشى أن يجد فيها منافسة له فى وصية بيزوهوف . فأسرعت تطمئنه ، وقالت بلهجة خالية من الاهتمام :

– لولا شدة تعلقى وحبى لعمى ... فأنا أعرف طبعه ، فهو كريم وصريح ، ولكن ليس معه إلا الأميرات .. وهن حديثات السن .

وأحنت رأسها وقالت همساً :

– هل أدى واجباته الدينية الأخيرة يا أمير ! إن هذه اللحظات فى غاية الأهمية ! ومادامت حالته بهذا السوء فلا بد من إعداده ، فنحن النساء يا أمير نعرف دائماً كيف نقول هذه الأشياء فى حينها . ولذا لا بد أن أراه حتماً . ومهما كان هذا قاسياً على نفسى ، فأنا تعودت المعاناة ...

وفهم الأمير ما تعنيه بالطبع ، وفهم أيضاً من أول لحظة رأى فيها أنا ميهايلوفنا أنه ليس من السهل التخلص منها . وقال لها :

– ألن تكون هذه المقابلة مرهقة له يا عزيزتى أنا ميهايلوفنا ؟ لننتظر حتى المساء ، فقد تنبأ الأطباء بأزمة .

– ولكن لا محل للانتظار ولا معنى له يا أمير فى هذه اللحظة .

تذكر أنها مسألة إنقاذ روحه من الهلاك الأبدى . آه ! ما أفظع واجبات الشخص المسيحى الأخيرة !

وانفتح باب الحجرات الداخلية ، ودخلت إحدى بنات أخت الكونت بوجه بارد عابس ، وجسم طويل حتى الخصر لا يتناسب مع قصر ساقيها ، والتفت إليها الأمير يسألها :

– كيف حاله ؟

فقالت الأميرة وهى تتفحص أناميهايلوفنا كأنها غريبة تماماً :

– كما هو ، وماذا تتوقع مع وجود كل هذه الجلبة ؟

فقالت أنا ميهايلوفنا بابتسامة حبور ، وخطت بخفة نحو ابنة أخ الكونت :

– آه يا عزيزتى . أنا لم أعرفك لأول وهلة . لقد حضرت لتوى وأنا فى خدمتك للمساعدة فى تمريض عمى . وأنا أتصور تماماً ما تعانينه.

ورفعت عينيها إلى السماء فى تعاطف وإشفاق ، ولم تجبها الأميرة ، بل ولم تبتسم وانصرفت . فخلعت أنا ميهايلوفنا قفازها ، وتخندقت فى كرسى ، ودعت الأمير فاسيلى للجلوس بجوارها ، وقالت لابنها:

– يا بوريس . سأدخل عند الكونت ، عمى المسكين ، واذهب أنت يا صديقى عند بيير ولا تنسى تبليغه دعوة آل روستوف للغداء . ولكنى أظنه لن يذهب ؟

ووجهت هذا السؤال إلى الأمير ، فقال الأمير بحزن :

– بالعكس . يسرنى جداً أن تأخذوا هذا الشاب وتخلصونى منه . فهو مرابط هنا . والكونت لم يسأل عنه مرة واحدة .

وهز كتفيه ، ومضى الحاجب بالشاب هابطاً السلم ، ثم صعدبه سلماً آخر إلى حجرة بيير .

- ١٣ -

لم ينجح بيير فى الاستقرار على مجال عمل له فى بطرسبرج ، ونفى فى واقع الأمر إلى موسكو لاعوجاج سلوكه . وكانت القصة التى رويت عنه فى دار الكونت روستوف صحيحة . وكان قد أفلح فى ربط ضابط الشرطة وتقييده إلى ظهر الدب . ووصل منذ بضعة أيام ونزل كعادته دائماً فى قصر أبيه . ومع أنه كان قد افترض أن حكايته صارت معروفة فى موسكو . وأن السيدات المحيطات بأبيه كن ضده دائماً وسينتهزن هذه الفرصة ليغيروا قلب الكونت ضده ، إلا أنه ذهب فى يوم وصوله إلى القسم الذى يقطنه أبوه من الدار ، ودخل إلى حجرة الاستقبال التى تجلس فيها الأميرات عادة ، فحياهن ، وكانت اثنتان منهن جالسات إلى إطار التطريز ، أما الثالثة فكانت تقرأ بصوت مرتفع . كن ثلاثة ، كبراهن أنيقة طويلة الخاصرة صارمة ، وهى التى كانت قد خرجت وقابلت أنا ميهايلوفنا ، وهى التى تقرأ بصوت عال . والاثنتان الأصغر منها كلتاهما ورديتا اللون وجميلتان ، ولا يمكن التفريق بينهما إلا لأن على خد إحداهما شامة صغيرة زادتها جمالا ، وكانتا منهمكتين فى التطريز . واستقبلن بيير

وكأنه بعث من قبره أو أصابه الطاعون . فالكبرى صمتت عن القراءة وحدقت فيه صامتة والارتياع يطل من عينيها . والثانية فعلت مثلها تماماً ، أما الصغرى وهى ذات الشامة – وكانت ذات طبع مرح زائط – فانحنت على إطار التطريز لتخفى ابتسامة ، ولعل ذلك بسبب ما توقعت حدوثه ، وجذبت الصوف من أسفل الإطار وانحنت كأنما لتفحص الرسم ، وهى لا تكاد تكتم الضحك .

وقال بيير :

– صباح الخير يا بنت العم . ألا تعرفيننى ؟

– بل أعرفك جيداً . جيداً جداً . أكثر من اللازم .

فسألها بيير مرتبكاً ، ولكن فى غير إحباط :

– وكيف حال الكونت ! أأستطيع أن أراه ؟

– الكونت عليل جسدياً ومعنوياً ، ويبدو أن همك الوحيد فى الحياة إيلامه بقدر الإمكان .

فكرر بيير قوله :

– أأستطيع أن أرى الكونت ؟

– إن كنت تريد قتله ، تريد قتله على الفور ، ففى وسعك أن تراه . اذهبى يا أولجا وانظرى هل حساء عمى جاهز – فقد حان وقت تناوله .

وبدا عليها من كلامها لأختها أنها تريد إشعاره بأنهن مشغولات .

ومشغولات بخدمة وراحة أبيه ، أما هو فشغله الشاغل هو إزعاجه وإرهاقه .

وخرجت أولجا ، وظل بيير واقفاً فى مكانه لحظة ، ثم نظر إلى الأختين وانحنى قائلا :

– سأذهب إذن إلى حجرتى ، وعندما يتسنى لى أن أراه ، أخبرانى بهذا .

وانصرف ، وسمع وهو مول ظهره رنين ضحكة عالية صدرت عن الأخت ذات الشامة .

وفى اليوم التالى وصل الأمير فاسيلى واستقر فى بيت الكونت ، وأرسل إلى بيير وقال له :

– يا صاحبى العزيز ، إن سلكت هنا مثل سلوكك فى بطرسبرج ساءت عاقبتك جداً ، وهذا كل ما أريد قوله لك . والكونت مريض جداً جداً . ويجب ألا تراه .

ومنذ تلك اللحظة لم يزعج أحد بيير ، وصار يقضى اليوم كله فى غرفته العلوية .

وفى اللحظة التى دخل عليه فيها بوريس ، كان بيير يتمشى فى حجرته جيئة وذهاباً ، ويقف بين وقت وآخر عند الأركان ، ويبدى إشارات وعيد بوجهها للجدار ، ثم ينظر من فوق نظارته ، ثم يعود ليذرع الحجرة وهو يغمغم بكلمات غير مفهومة ، ويهز كتفيه ، ويلوح بيديه .

وقال وهو مقطب ، مشيراً بإصبعه إلى شخص ما :

– لقد انتهى زمان إنجلترا ، ومستر بيت Pitt خائن لأمته ولحقوق الإنسان ، يستحق العقاب ....

ولم يتسع له الوقت كى ينطق بحكمه على مستر بيت ، وقد تخيل نفسه فى تلك اللحظة نابليون ونجح وهو متقمص شخصية بطله فى عبور المانش العاصف وأفلح فى غزو لندن ، عندما أبصر الضابط الرشيق الوسيم الشاب يدخل عليه ، فجمد فى مكانه . وكانت آخر مرة رأى فيها بيير هذا الشاب وهو فى الرابعة عشرة ، ولم يتذكره على الإطلاق . ولكنه برغم هذا تناول يده على طريقته السريعة الدافقة الحماسة والحرارة ، وابتسم له بمودة .

وقال بوريس بهدوء وهو يفتر عن ابتسامة لطيفة :

– أتذكرنى ؟ لقد حضرت مع أمى لأرى الكونت ، ولكن يبدو أنه ليس على ما يرام .

فقال بيير وهو يحاول أن يتذكر من هو هذا الشاب :

– نعم . إنه مريض فيما يبدو ، والناس دائماً يضايقونه .

وفطن بوريس إلى أنه لم يعرفه ، ولكنه لم يستحسن تعريفه من هو ، وبدون أى حرج حدق فى وجهه وقال بعد برهة صمت طويلة أربكت بيير :

– الكونت روستوف يدعوك للغداء معه اليوم .

فقال بيير جذلاناً :



وفى اللحظة التى دخل عليه فيها بوريس ، كان بيير يتمشى فى حجرته جيئة وذهابا ..

– آه . الكونت روستوف ! أنت إذن ابنه إيليا ؟ أتصدق أننى للوهلة الأولى لم أعرفك . أتتذكر كيف كنا نتزلق معاً على جبال القبرة ، مع مدام جاكو ... منذ أمد طويل ؟

فقال بوريس بأناة وهو يبتسم ابتسامة جريئة ساخرة :

– أنت مخطىء . أنا بوريس ابن الأميرة أنا ميهايلوفنا دروبتسكوى . والكونت روستوف الأب هو الذى اسمه إيليا ، واسم ابنه نيقولاى . وأنا لا أعرف أحداً اسمه مدام جاكو ...

فهز بيير يديه ورأسه ، كأنما ليذب عنه أسراباً من النحل أو الذباب ، وقال :

– آه ! كيف حدث هذا ! لقد اختلط على كل شىء . فلى أقارب كثيرون جداً فى موسكو . أنت إذن بوريس ... نعم .. هذا حسن ، والآن وقد فهمنا كل شىء خبرنى ما رأيك فى حملة بولونى Bologne ، فأحوال الإنجليز سوف تسوء كما تعلم إن عبر نابليون القنال الإنجليزى ، وفى رأيى أن الحملة ممكنة جداً . هذا بشرط ألا يفسد فيلينيف كل شىء .

ولم يكن بوريس يعرف شيئاً عن حملة بولونى Bologne ، وكانت هذه أول مرة يسمع فيها اسم فيلينيف ، فقال فى ثقة بالنفس يمازجها التهكم :

– نحن هنا فى موسكو نهتم بمآدب الغداء والفضائح أكثر من اهتمامنا بالسياسة . ولا أعرف السياسة ولا أهتم بها ، وموسكو مهتمة

بالفضائح أكثر من أى شىء . وهم الآن لا يتحدثون إلا عنك وعن الكونت !

فافتر بيير عن ابتسامته الرقيقة الحانية ، كأنما يخشى أن يقول شيئاً يكدر رفيقه ، ولكن بوريس كان يتكلم بدقة ووضوح وجفاف ، وهو ناظر فى وجه بيير مباشرة . واستطرد بوريس :

– ليس فى موسكو شغل للناس إلا بالكلام عن الفضائح . فالجميع الآن منهمكون فى التساؤل عمن سيترك له الكونت ثروته الطائلة ، مع أنه قد يعمر أكثر منا جميعاً ، وهذا ما أتمناه له بإخلاص .

فقاطعه بيير قائلا :

– نعم . هذا فظيع . فظيع جداً .

وكان ما يزال خائفاً من تفوه هذا الضابط الشاب بشىء يكدره ، وقال بوريس وقد تضرج وجهه قليلا ولكن من غير أن يغير مسلكه أو لهجته وصوته :

– وأحسبك تظن أن كل واحد لا يفكر إلا فى الحصول منه على شىء لنفسه .

وقال بيير :

– هذا هو الواقع بالضبط .

واستطرد بوريس :

– وهذا بالضبط ما أردت أن أقوله لك لتجنب سوء الفهم ، إنك تخطىء كثيراً إن عددتنى وأمى من بين هؤلاء الطامعين . نحن

فقراء جداً حقاً ، ولكننا – وأنا أتكلم على الأقل عن نفسى – لا أعد نفسى ، لمجرد أن والدك واسع الثراء ، أحد أقاربه .. ولن نطالبه أنا أو أمى بأى شىء ولن نأخذ منه شيئاً !

ومرت برهة طويلة قبل أن يفهم بيير ، وعندما فهم قفز من فوق الأريكة ، وقبض على يد بوريس بحركته السريعة الخرقاء ، وقد زاد احمرار وجهه على حمرة وجه بوريس ، وشرع يكلمه بمزيج من الحرج والخجل :

– هذا غريب ! .. أتظن أننى .. كيف يمكن أن ... أنا أعرف جيداً ...

ولكن بوريس قاطعه مرة أخرى ، محاولا تهدئة بيير ، بدلا من أن يهدئه بيير :

– أنا سعيد لأننى أخبرتك بكل شىء بصراحة . وربما كرهت صراحتى ، فاغفرها لى وآمل ألا أكون قد أسأت إليك ، فالقاعدة عندى أن أقول كل شىء بوضوح تام ... والآن أى رسالة أحملها منك ؟ هل ستأتى للغداء فى دار آل روستوف ؟

وعاد بوريس إلى اللطف ، وقد تأكد أنه أدى واجباً شاقاً ، وتخلص من الحرج ، وأوقع فيه الطرف الآخر . وقال بيير مستعيداً رباطة جأشه :

– اسمح لى أن أقول لك إنك شخص رائع . وما قلته الآن بديع جداً . جداً ... وأنت طبعاً لا تعرفنى ، وقد مضى زمن طويل منذ

التقينا آخر مرة .. وكنا أطفالا .. وربما خطر لك أننى ينبغى ... أنا فاهم . فاهم تماماً .. كان يجب ألا أصنع هذا ، وألا تواتينى الشجاعة ، ولكن ذلك كان رائعاً . وأنا سعيد جداً بمعرفتك . فكرة غريبة ... (وابتسم وأردف) تلك التى أخذتها عنى بالطبع (وضحك) ولكن ماذا فى ذلك . لنتعارف الآن . أرجوك !

وشد على يد بوريس وقال :

– أتعرف أننى لم أقابل الكونت مرة واحدة منذ جئت ؟ إنه لم يرسل فى طلبى ... وأنا آسف له جداً ، ولكن ماذا يسع المرء أن يصنع ؟

فسأله بوريس باسماً :

– إذن أنت تظن أن نابليون سيفلح فى العبور بجيشه ؟

وأدرك بيير أن بوريس يحاول تغيير الموضوع ، فشرع يشرح له مزايا ومساوئ حملة بولونى .

ودخل حاجب يستدعى بوريس إلى الأميرة ، لأنها على وشك الانصراف . ووعد بيير بالحضور لتناول الغداء لدى آل روستوف كى يجالس بوريس أكثر ، وشد على يده بحرارة عند انصرافه ، وهو ينظر فى وجهه بمودة من فوق نظارته .

ولما انصرف جعل بيير يذرع الحجرة جيئة وذهاباً برهة أخرى ، غير متوعد خصماً وهمياً هذه المرة ، بل باسماً وهو يتذكر ويستعيد حديثه مع هذا الشاب الساحر الذكى الهمام . وكما يحدث كثيراً

للشبان ، ولا سيما حين يعانون من الوحدة ، شعر بجاذبية شديدة غير معقولة نحو هذا الشاب ، وقرر أن يصادقه .

وصحب الأمير فاسيلى الأميرة إلى البهو ، وكانت واضعة منديلها على عينيها ، ووجهها مبلل بالدمع ، وتقول :

— هذا فظيع ! فظيع ! ولكن مهما كلفنى الأمر ، لابد أن أقوم بواجبي ، وسأعود لأقضى الليل هنا ، فهو لا يجوز أن يترك هكذا . وكل دقيقة لها قيمتها . ولست أفهم ماذا تنتظر الأميرات ! ولعل الله يلهمنى طريقة أعده بها لهذا اللقاء !.. إلى الملتقى يا أمير ، وكان الله معك !

وأجابها الأمير فاسيلى مشيحاً عنها :

— وداعاً يا صديقتى العزيزة الحنون .

وقالت الأم لابنها عندما جلسا فى العربة مرة أخرى :

— إنه فى حالة سيئة ، ولا يكاد يعرف أحداً .

— لست أدرى يا ماما ما موقفه من بيير ..

— الوصية ستوضح هذا يا عزيزى . ومصيرنا أيضاً يتوقف عليها.

— ولكن ماذا يجعلك تعتقدين أنه سيترك لنا شيئاً ؟

— أوه يا عزيزى . إنه غنى جداً ، ونحن فقراء جداً ...

— هذا ليس سبباً كافياً يا أمى ..

فبكت الأم وقالت :

— يا إلهى ! كم هو مريض ! كم هو مريض !

— ١٤ —

ولما ذهبت أنا ميهالوفنا مع ابنها بوريس لتعود الكونت كيريل بيزوهوف ، جلست الكونتس روستوف برهة طويلة وحدها . واضعة منديلها على عينيها ، وأخيراً رنت الجرس ، وقالت للخادمة بغضب لأنها تركتها تنتظر بضع دقائق :

— ما معنى هذا ؟ ألا تهمك خدمتى ؟ إن كان الأمر كذلك سأجد لك مكاناً آخر .

وكانت الكونتس مكروبة للمتاعب والفاقة التى تحيق بصديقتها أنا ميهايلوفنا ، ولذا نفست عن غيظها وهمها — كما هى عادة الأسياد — بزجر خادمتها . وقالت الخادمة :

— أنا آسفة جداً يا سيدتى .

— اطلبى من الكونت أن يأتى إلى هنا .

وجاء الكونت يتهادى ليقابل زوجته ، وهو كالعادة يشعر بالذنب ، وغطى ذلك بالتهليل :

— آه أيتها الكونتس الصغيرة ! باله من « سوتيه » هذا الذى أعدوه ! وسنشرب نبيذ مادير ا مع طيور الغابة يا عزيزتى ! لقد ذقته ! لقد أحسنت صنعاً بإعطاء « تاراس » ألف روبل ، فإنه يستحقها !

وجلس بجوار زوجته ، واضعاً كوعه على ركبته ، وراح يسوى شعره الأشيب . وقال :

— ما هى أوامرك أيتها الكونتس الصغيرة ؟

فقالت وهى تشير إلى صداره :

ـ لماذا هذه اللطخة هنا ؟ لا شك إنه السوتيه !

وابتسمت ثم استطردت فى لهجة جادة :

ـ المسألة أننى أريد مبلغاً من المال .

وازداد وجهها تجهماً عندما رأته يخرج كيس نقوده ويقول :

ـ سمعاً وطاعة أيتها الكونتس الصغيرة .

ـ أريد مبلغاً كبيراً يا كونت ! خمسمائة روبل .

ومدت منديلها الأبيض الناعم لتنظف صدار زوجها ، الذى هتف من فوره :

ـ بعد دقيقة واحدة ! من هناك ؟ ... أرسلوا إلى « ميتنكا » .. حالا !

وميتنكا هــو الشاب سليل الأسرة النبيلة الذى تربى فى بيت الكونت ، وهو الآن يدير كل أعماله المالية . وبعد لحظة كان يدلف فى هـدوء إلى الحجرة . وقال الكونت للشـاب الذى وقف أمامـه باحترام :

ـ يا ولدى العزيز . هات لى هنا ...

وفكر لحظة ثم استطرد :

ـ سبعمائة روبل . نعم . ولا تأت بها ممزقة بالية كالمرة الماضية ، بل جيلة ، لأجل الكونتس ..

فقالت الكونتس وهى تزفر بحزن :

ـ نعم يا ميتنكا ، أوراقاً نظيفة أريدها من فضلك .

ـ يا صاحب السعادة ، متى تريد منى إحضار هذا المـال ؟ فخامتكم لابد أن تعلموا ...

ولكنه لاحظ أن الكونت بدأت أنفاسه تسرع وتثقل ، وهى دائماً بوادر انفجار غضبه ، فأردف :

ـ لا تهتم ... كدت أنسى . أتريد منى أن أحضرها الآن ؟

ـ نعم . نعم . الآن ، وأعطها للكونتس .

ولما انصرف الشاب قال لها الكونت . :

ـ يا له من كنز ، هذا الفتى . إنه لا يعرف معنى لكلمة المستحيل وهذا شىء لا أطيقه ، فكل شىء ممكن !

فقالت الكونتس :

ـ النقود يا كونت ! النقود ! كم تسبب من تعاسة الناس ! وأنا فى حاجة ماسة إلى هذا المبلغ .

ـ أنت متلافة أيتها الكونتس الصغيرة . هذا شىء نعرفه جميعاً .

وقبل الكونت يدها وخرج متوجهاً إلى حجرته .

ولما عادت أنا ميهالفنا من دار بيزو هوف ، كانت النقود أمام الكونتس على منضدتها الصغيرة ، أوراقاً كلها جديدة ، تحت منديلها ولاحظت أنا ميهالفنا أن الكونتس مستثارة النفس ولكنها تجاهلت هذا ، وسألتها الكونتس :

ـ ما الأخبار يا عزيزتى ؟

– إنه فى حالة سيئة ! فظيعة ! لا يكاد المرء يعرفه . إنه مريض جداً . جداً . رأيته دقيقة واحدة ، ولم أقل له كلمتين .

وفجأة قالت لها الكونتس وهى محمرة الوجه احمراراً لا يتفق ووجهها النحيل المسن :

– أرجوك ألا ترفضى يا أنيت . هذا مبلغ صغير ...

وانتهزت أنا ميهايلوفنا الفرصة وأكبت على الكونتس تعانقها والكونتس تقول :

– إنه هدية منى لبوريس – كى يتجهز .

وراحت أنا تعانقها وتبكى . وبكت الكونتس أيضاً . بكتا معاً ، لأنهما صديقتان ، ولأنهما رقيقتا القلب ، ولأنهما وهما الصديقتان منذ الطفولة ، لا يليق أن تفكرا فى شىء حقير كالنقود .. وها هو شبابهما ولى ... ولكن الدموع طابت لكلتيهما ونفست عنهما ..

– ١٥ –

كانت الكونتس روستوف وبناتها والعدد الأكبر من الضيوف جالسين فى قاعة الاستقبال . وقاد الكونت رجال الحفل إلى حجرته ، وراح يلفت أنظارهم إلى مجموعته الثمينة من الغلايين التركية . وبين الفينة والفينة ، كان يذهب ويسأل أحضرت هى أم لم تحضر بعد ؟ فقد كانوا فى انتظار ماريا ديمتريفنا أروزيموف ، المعروفة فى المجتمع الراقى باسم « التنين الرهيب ! » وهى سيدة تدين بشهرتها لا إلى ثروتها أو مقامها السامى ، بل لمضاء ذهنها ومسلكها الصريح الذى لا يبالى

بالعرف والتقاليد . وكانت ماريا هذه معروفة للأسرة الإمبراطورية ، ومعروفة لموسكو بأسرها ، وبطرسبرج أيضاً ، وبينما كانت المدينتان تعجبان لها ، كانتا تضحكان سراً لفظاظتها ، ويتناقل الناس حكايات عنها ، ولكن الجميع رغم كل شىء كانوا يحترمونها ويهابونها .

وفى حجرة الكونت الملآنة بالدخان كان هناك حديث عن الحرب ، التى أعلنت فى منشور ، ودار الكلام عن التجنيد والقوات المسلحة . ولم يكن أحد قد قرأ هذا المنشور بعد ، ولكن الجميع يعرفون بصدوره . وكان الكونت جالساً على أريكة عثمانية ، وعلى كل من جانبيه رجل يتحدث ويدخن . أما الكونت نفسه فلم يكن يتكلم ولا يدخن ، بل يميل برأسه تارة إلى هذه الجهة ، وتارة إلى تلك ، وينظر برضا واضح إلى المدخنين ويصغى للحجج التى أثارها بين جاريه .

وكان أحد هذين الرجلين مدنياً له وجه صفراوى مغضن حليق ، تجاوز منتصف العمر ، وإن كان يرتدى ملابسه على آخر طراز يرتديه الشبان ، ويضع ساقه فوق الأريكة وكأنه فى بيته ، ومبسم من الكهرمان فى جنب فمه ، ويدخن بتشنج وهو مغضن وجهه . وكان أعزب ، اسمه شنشين ، ابن عم للكونتس ، ومعروف فى قاعات استقبال موسكو بلسانه اللاذع ، وكان يبدو متشامخاً فى تصرفاته جميعاً بإزاء رفيقه ، وهو ضابط فى الحرس ناضر وردى اللون أنيق ، حسن الزينة والسمت ، يضع غليونه فى وسط فمه ، ويسحب

منه القليل من الدخان لينفثه فى حلقات متصاعدة من شفتيه الحمراوين الدقيقتين ، واسمه الملازم بيرج ، وهو ضابط فى آلاى سيمونوفسكى مع بوريس الذى سيمضى معه ، وهو الذى ذكرت نتاشا اسمه لتغيظ به فيرا ووصفته بأنه طالب يدها ، وكان الكونت جالساً بين هذين الاثنين مصغياً لها باهتمام . وكانت هواية الكونت التى تلى فى الأهمية لعبة «البوستن» هى الإصغاء للأحاديث ، ولا سيما عندما ينجح فى إثارة خلاف فى الرأى بين صديقين ثرثارين .

وقال شنشين ضاحكاً بسخرية ، مازجاً الروسية العامية بالتعبيرات الفرنسية البالغة التنميق :

— ولكن خبرنى ياصديقى المبجل ألفونس كارلوفتش Karlovich أنت تقول إنك ستحصل على إيراد من الحكومة . وتفكر أيضاً فى الحصول على دخل بسيط من شركتك ؟ وتريد أيضاً أن تحصل على دخل بسيط من شركتك ؟

ورد عليه بيرج بدقة واحترام وهدوء وكان يلزم الصمت إذا لم تكن له صلة بالحديث المثار ولو سكت ساعات :

— لا يابيوتر نيقولايفتش ! إنما أردت فقط أن أبين أن مزايا الخدمة فى الخيالة أقل من مزايا الخدمة فى المشاة . وانظر فى حالتى أنا على سبيل المثال يا بيوتر نيقولا يفتش ! إليك حالتى أنا . لو كنت فى الخيالة فلن أتقاضى أكثر من مائتى روبل كل أربعة أشهر فى رتبة الملازم ، أما الآن فرتبى الشهرى مائتان وثلاثون روبلا .

وشاعت الابتسامة فى وجهه وهو ينظر إلى محدثه وإلى الكونت ، كأنما نجاحه أهم ما يعنى كل الناس ، وأردف :

— وفضلا عن هذا يا بيوتر نيقولايفتش فإن وجودى فى الحرس سيجعلنى أقرب إلى ميدان القتال ، ومشاة الحرس هناك يحظون بإجازات أكثر فى فترات متقاربة . وهكذا ترى كيف يمكننى تدبير أمورى جيداً بمائتين وثلاثين روبلا ، بل إننى أدخر منها وأرسل إلى أبى جانباً منها أيضاً .

وأطلق من فمه الرقيق حلقة من الدخان .

فقال شنشين ، وهو ينقل غليونه إلى الجانب الآخر من فمه ويغمز بعينه للكونت :

— هناك توازن ، والألمانى يمكنه أن يدرس القمح من رأس فأس ! كما يقول المثل الروسى .

وضحك الكونت ، ولما رأى الآخرون أن شنشين يتكلم أخذوا فى الإصغاء ، ولم يفطن بيرج لابتساماتهم الساخرة ولا لقلة اهتمامهم ، فراح يشرح لهم كيف أنه بانتقاله إلى الحرس قد تقدم خطوة على زملائه القدامى فى الكتيبة ، وكيف أن قائد السرية فى الحرب يمكن أن يقتل بسهولة ، فيكون من السهل عليه جداً بما أنه يتلوه فى القيادة أن يخلفه ، وكيف أن كل واحد فى الآلاى يحبه ، وكيف أن أباه مسرور منه جداً . فكان واضحاً أن بيرج سعيد بنفسه جداً وهو يروى كل هذا ، ولا يبدو أنه يشك مطلقاً أن الآخرين يمكن أن تكون لهم اهتمامات

أخرى . ولكن كل ما قاله كان ظريفاً ورصيناً ، وكانت سذاجة أنانيته واضحة للعيان ، فاستسلم لها الجميع .

وقال شنشين ، وهو يربت على كتفه ، وينزل قدمه عن الأريكة العثمانية :

— حسناً يا صاحبي العزيز . سواء أكنت فى الخيالة أو فى المشاة ، ستمضى فى طريقك على خير وجه ، وهذا ما اتنبأ لك به ! ..

فابتسم بيرج فى حبور ، وتوجه الكونت والضيوف معه إلى قاعة الاستقبال .

* * *

وكانت هذه هى الفترة التى تسبق الغداء مباشرة ، حين يكون الضيوف المتجمعون غير ميالين للدخول فى أحاديث مطولة ، لأنهم يتوقعون الدعوة إلى مائدة الطعام فى أى لحظة ، ولكنهم يرون لزاماً عليهم أن يتحركوا ولا يلزموا الصمت ، لكى يتظاهروا بعدم نفاد الصبر أو اللهفة على الجلوس إلى المائدة . وكان المضيف والمضيفة ينظران دائماً صوب الباب ، ويتبادلان النظرات أحياناً . ويحاول المدعوون أن يستشفوا من هذه النظرات من أو ماذا ينتظرون ، أهو أحد ذوى القربى المهمين تأخر عن موعده للوصول ، أم طبق معين لم يتم بعد إعداده .

ووصل بيير فى وقت الغداء بالضبط ، وجلس بارتباك فى وسط قاعة الاستقبال ، فى أول مقعد مريح وجده فى طريقه ، معرقلا

طريق الجميع بحجمه الضخم . وحاولت الكونتس أن تستدرجه للكلام ، إلا أنه نظر فيما حوله بسذاجة من فوق نظارته كأنما يبحث عن أحد ، وأجاب بكلمات أحادية المقطع على كل أسئلة الكونتس . كان يعترض الطريق ، ولكنه كان الشخص الوحيد الذى لا يشعر بذلك . وكان معظم المدعوين يعرفون قصة الدب ، فراحوا ينظرون بتساؤل إلى هذا الشخص الضخم البدين الذى يبدو مسالماً بعيداً عن الأذى ، وهم يحجبون فى أنفسهم كيف أقدم مثل هذا الشاب الرصين الهادىء على ارتكاب هذا الملعوب الماجن .

وسألته الكونتس :

— أوصلت إلى موسكو منذ وقت قصير ؟

— نعم يا سيدتى !

— ألم تر زوجى ؟

— لا يا سيدتى !

وابتسم ابتسامة لا يدعو إليها المقام .

— أحسبك كنت فى باريس أخيراً ... ؟

— نعم يا سيدتى !

— أحسبها مدينة مثيرة للاهتمام وشائقة .

— جداً يا سيدتى !

وتبادلت الكونتس النظرات مع أنا ميهالوفنا ، وأدركت أنا ميهالوفنا أنه مطلوب منها أن تتولى هى أمر هذا الشاب ، فجلست

بجواره وبدأت تحادثه عن أبيه ، ولكن إجاباته عليها كانت كإجاباته على الكونتس فى كلمات أحادية المقطع . وكان المدعوون جميعاً قد شغلوا بالحديث مع بعضهم البعض ، فكنت تسمع همهمات من العبارات مثل :

– حفلة آل رازوموفسكى Razumovskys ...؟ كانت جميلة جداً ... أنت رقيقة المشاعر جدا يا كونتس إبراكسين ...

ونهضت الكونتس وتوجهت إلى بهو الاستقبال ، وسمع صوتها يتساءل من هناك :

– ماريا ديمتريفنا ؟

وسمع صوت خشن يجيبها :

– بشحمها ولحمها !

وبعد لحظة دخلت ماريا ديمتريفنا إلى الحجرة ، ونهضت كل الفتيات ، بل والسيدات ما عدا المسنات منهن جداً ، وماريا ديمتريفنا سيدة بدينة فى نحو الخمسين من عمرها واقفة فى فتحة الباب ، رافعة رأسها بشعره الأشيب المتموج ، تنظر من عليائها إلى الضيوف ، ونسقت كميها بحركة تشبه التشمير . وكانت تتكلم الروسية دائماً ، فقالت بصوتها العالى الرنان الذى يطغى على كل الأصوات الأخرى :

– أتمنى السعادة والصحة لسيدة الدار التى نحتفل بعيد اسمها المبارك ، ولكل أطفالها .

ثم التفتت إلى الكونت الذى كان يقبل يدها وقالت بصوتها المدوى :

– أهذا أنت أيها الخاطىء العريق ؟ أظنك سئمت الإقامة فى موسكو ، فليس فيها مكان تخرج إليه مع كلابك ! حسناً يا صاحبى الطيب ! وما العمل ؟ هذه الأفراخ لا تلبث أن تكبر .

وأشارت إلى البنات واستطردت :

– وطوعاً أو كرهاً عليك أن تبحث لهن عن شبان ليتزوجوهن !

ونظرت إلى نتاشا وقالت :

– وأنت يا قوزاقى ؟ كيف حالك ؟

وكانت تسمى نتاشا القوزاقية ، وقد أقبلت الفتاة لتقبل يدها بلا خجل ... بينما مضت هى تحدث نفسها : « أنا أعلم أنها شريرة ، ولكنى أحبها ! »

وأخرجت من حقيبتها الكبيرة قرطاً من الكهرمان تتدلى حباته وأعطته لنتاشا ، التى كان وجهها الوردى متهللا مشرقاً فى عيد ميلادها ، ثم التفتت ماريا على الفور إلى بيير وقالت له بصوت تعمدت أن يكون هادئاً لطيفاً :

– آى ! آى ! تعال هنا يا سيدى ! ... تعال هنا !

وراحت تشمر كميها من ذراعيها فى حركة تنذر بالشر . وأقبل نحوها بيير ، وهو ينظر إليها من فوق نظارته ببراءة ..

– تعال ! اقترب يا سيدى ! لقد كنت أنا الشخص الوحيد

الذى يصارح أباك بالحقيقة عندما كان متمتعاً بالحظوة الكبرى . وهذه المهمة صارت الآن واجباً مقدساً لى !

وتمهلت قليلا ، وصار كل إنسان يتوقع فى صمت ما سيحدث بعد هذا ، شاعراً أن هذه مجرد مقدمة .

— فتى جميل ، لا مراء . فتى جميل ! .. أبوه راقد على فراش الموت وهو يسلى نفسه ، بربط ضابط شرطة على ظهر دب ! يا للعار يا سيدى ! يا للعار ! كان الأجدر بك أن تمضى إلى الحرب !

وأعطته ظهرها ، وقدمت يدها إلى الكونت الذى كان يجد صعوبة فى مغالبة الضحك ، وقالت :

— أظن الغداء جاهزاً . إيه ؟

فقاد الكونت مع ماريا المسيرة إلى قاعة المائدة ، ثم تبعتهما الكونتس ومعها عقيد من (الهوسار) ، وهو شخص مهم بما أن نيقولاى سيذهب فى صحبته لينضم إلى الآلايه ، ثم أنا ميهالوفنا مع شنشين ابن عم الكونتس ، وتبع هؤلاء رتل من الأزواج الأخرى على امتداد البهو ، ومن خلف الجميع الأطفال مع مؤدبيهم ومربياتهن ، دخلوا فرادى . وسرى النشاط بين الخدم والسقاة ، وارتفعت أصوات تحريك الكراسى ، وبدأت نغمات الموسيقى تنبعث من جوقة الأوركسترا بينما الضيوف يحتلون أماكنهم أمام المائدة الحافلة . ثم بعد هذه التحية الموسيقية ارتفعت أصوات الشوك والسكاكين ، وأحاديث الضيوف ، ووقع خطوات السقاة الخافتة . وترأست الكونتس على أحد جانبى

مقدمة المائدة ، وعن يمينها ماريا ديمتريفنا ، وعن يسارها أنا ميهايلفنا وبقية سيدات الحفل ، وفى الجانب المقابل جلس الكونت وعن يساره عقيد الهوسار وعن يمينه شنشين والضيوف الآخرون من الذكور . وعن أحد جانبى المائدة الكبرى جلس الشبان الأكبر سناً : فيرا بجوار بيرج ، وبيير بجوار بوريس ، وعلى الناحية الأخرى الأطفال مع المعلمين والمربيات . ونظر الكونت من وراء كريستال إبريق الخمر ، وصحاف الفاكهة ، إلى زوجته وطاقيتها العالية ذات الشرائط الزرقاء ، وراح يصب النبيذ بكل همة لمن حوله من الضيوف ، ولا ينسى نفسه ... والكونتس أيضاً ، مع أنها لم تغفل عن واجباتها لجاراتها على المائدة ، كانت تنظر من وراء صحفة الأناناس إلى زوجها الكونت الذى بدت لها صلعته ووجهه شديدى الاحمرار بالقياس إلى شعره الأشيب .

وعلى الجانب النسائى كانت هناك همهمة حديث ، ولكن على الجانب الرجالى زاد ارتفاع أصوات الرجال بإطراء ، ولا سيما صوت عقيد الهوسار الذى ازداد احتقان وجهه ، وراح يأكل ويشرب بكل شهية ، حتى أن الكونت جعل منه مثلا يحث بقية المدعوين على الاقتداء به . ولكن بيرج كان مفتراً عن ابتسامة رقيقة وهو يؤكد لفيرا أن عاطفة الحب ليست أرضية ، بل من السماء ! وكان بوريس يخبر صديقه الجديد بأسماء الضيوف ، بينما هو يختلس النظرات إلى نتاشا الجالسة قبالته .

وكان بيير قليل الكلام ، وكان ينظر حوله إلى الوجوه الجديدة ويشرب كثيراً . واختار من بين نوعى الحساء حساء السلحفاة البحرية ، ومن أطباق الطعام اختار لحم الطائر البرى المعروف باسم الطيهوج ، وأكثر منه . وإن كان لم يترك صنفاً لم يتذوقه ، وكان يشرب من كل أنواع الخمر التى تعرض عليه ليختار منها ، فلا يرد كبير السقاة خائباً ، سواء كان المشروب من ماديرا ، أو الخمر المجرى . أو خمر الراين . وكان يشرب من جميع الأصناف بتلذذ شديد بلا تفرقة . وهو ينظر إلى سائر الضيوف بسحنة ازدادت لطفاً ووداعة مع تقدمه فى تناول الطعام والشراب .

ونتاشا التى كانت جالسة قبالته كانت تنظر إلى بوريس نظرة ابنة الثالثة عشرة إلى الشاب الذى قبلته لأول مرة . وهى عاشقة له . وكانت هذه النظرة تشرد أحياناً وتقع على بيير ، وكان وجهها الوردى المتوهج المتألق يملأ بيير سروراً ، فيشعر بدافع للضحك من غير أن يدرى لماذا يضحك ...

وكان نيقولاى جالساً بعيداً عن سونيا ، بجوار جولى كاراجين ، ويبتسم أيضاً ابتسامته اللاواعية وهو يتحدث إليها . أما سونيا فكانت على محياها ابتسامة مجاملة اجتماعية . ولكن كان واضحاً أنها فريسة عذاب الغيرة . وفى إحدى اللحظات اكفهر وجهها ، ثم تحول إلى اللون القرمزى ، وتركزت كل طاقاتها فى الإصغاء لما عسى أن يقوله نيقولاى لجولى . وجعلت المربية تنظر حولها فى قلق ، كأنما هى

تتأهب لدفع أى مكدر عن الفتيات ، وكان المعلم الألمانى يحاول أن يتعلم ويحفظ عن ظهر قلب قائمة بأسماء كل صنوف الأطباق والحلوى والأنبذة ، كى يكتب وصفاً مفصلا لها لأهله فى بلده بألمانيا. وغاظه جداً أن كبير السقاة تخطاه بالزجاجة الملفوفة فى فوطة ، فقطب حاجبيه ، وتظاهر بأنه غير مهتم بتناول شىء من هذا النوع الفاخر من النبيذ ، ولكنه كان مغتاظاً فى الواقع لا رغبة فى إطفاء غلته بالشراب ، بل لإرواء غلته إلى المعرفة .

- ١٦ -

وفى الجهة التى جلس فيها الرجال إلى المائدة ، كان الحديث قد أخذ — مع حرارة الأكل والشراب — يزداد حيوية وسخونة . وكان العقيد يؤكد أن منشور إعلان الحرب قد صدر فعلا فى بطرسبرج ، وأن نسخة منه — قرأها هو بنفسه — حملها ساع خاص إلى القائد العام (كوتوزوف) .

وقال شنشين :

— وأى روح شرير هذا الذى استولى علينا ودفعنا إلى محاربة بونابرت ؟ إنه استطاع بالفعل أن يحمل النمسا على أن تقبع فى مقعد خلفى ، وأخشى أن يكون دورنا نحن قد حل هذه المرة !

وكان العقيد رجلا بديناً طويلا وألمانياً دموى المزاج ، ولا شك أنه ضابط همام ووطنى متحمس ، ولذا ضاق بكلمات شنشين ، وقال بلكنة ألمانية :

– السبب فى هذا يا سيدى الطبيب أن الإمبراطور يعرف ذلك . فهو فى منشوره يقول إنه لا يسعه أن ينظر باطمئنان إلى الخطر الذى يهدد روسيا ويهدد أمن وسلامة الإمبراطورية وكرامتها وقدسية « تحالفاتها » !

وضغط بشدة على الكلمة الأخيرة ، كأنما لب المسألة كلها فى هذه الكلمة ، وبدقة وقوة ذاكرة تعى حافظتها الأمور الرسمية راح يتلو عن ظهر قلب افتتاحية هذا المنشور الإمبراطورى :

– إن الرغبة التى تحفز المليك إلى واجبه وهدفه الوحيد الذى لا مناص منه ، هى الرغبة فى إقرار السلام على أساس مضمون ثابت الدعائم . وهذا ما دفعه إلى إرسال جزء من قواته إلى الخارج ، وإلى اتخاذ التدابير لإنجاز هذا المشروع الجديد » . وهذا هو السبب ياسيدى العزيز .

قال هذا وهو يهز يده بكأس من النبيذ ، ناظراً إلى الكونت التماساً لتشجيعه . ولكن شنشين قال له وهو يعبس ويبتسم هازئاً ويزاوج فى كلامه بين الفرنسية والروسية :

– ألا تعرف المثل الذى يقول : « إيرما . إيرما . خير لك أن تلزمى دارك وتهتمى بمغزلك » ! هذا المثل ملائم لنا جداً ، إلى أقصى حد . عجباً ! هذا سفوروف Suvorov نفسه لقى هزيمة نكراء ساحقة ، وأين لنا الآن بأمثال سفوروف ؟ إنى أسألك أين هم ياسيدى !

فقال العقيد ، وهو يدق المائدة بإبهامه فى حماسة :

– ينبغى أن نقاتل حتى آخر قطرة من دمنا . وأن نموت فى سبيل إمبراطورنا . وعندئذ يكون كل شىء على ما يرام . وعلينا أن نقلل من المناقشات فى هذا الموضوع بقدر الإمكان .

والتفت إلى ناحية الكونت وهو يمط كلمة « الإمكان » ما وسعه المط ، واستطرد :

– هكذا نحن الهوسار. ننظر إلى القضية ، وهذا هو كل ما عندنا من قول .

والتفت نحو نيقولاى وقال له ، وكان نيقولاى قد ترك محادثة جولى ليصغى لحديث الحرب :

– وكيف تنظر أنت إليها أيها الضابط الهوسار الشاب ؟

وراح نيقولاى ينظر إلى العقيد بكل عينيه ويصغى لكلماته ملء أذنيه ، وأجابه ، وقد اشتدت حماسته ، وراح يقلب ويدير صحفته أمامه ، ويغير مواضع الأكواب ، ووجهه ناطق بالاستماتة كأنه معرض فى هذه اللحظة لخطر ماحق بالفعل ، وقال :

– إنى متفق معكم فى الرأى يا سيدى . فأنا مؤمن تماماً أن على الروس أن ينتصروا أو يموتوا !

وكان هو شخصياً – مثل سائر الجماعة – شاعراً بأنه تكلم بكل حماسة ، فأحس لذلك بالحرج ، لأن درجة هذه الحماسة كانت أكثر مما تتطلب المناسبة .

وقالت جولى الجالسة بجواره لاهثة الأنفاس :

— كلام بديع ، هذا الذى قلته الآن .

وارتجفت سونيا من قمة الرأس إلى أخمص القدم ، وقد احتقن وجهها حتى أذنيها ، وما وراءهما ، وبانت الحمرة فى عنقها وكتفيها بينما كان نيقولاى يتكلم . وأصغى بيير لكلام العقيد ، وهز رأسه مؤيداً وقال :

— هذا رائع !

وقال العقيد لنيقولاى وهو يدق المائدة مرة أخرى :

— أنت « هوسار » حقيقى أيها الشاب !

وارتفع صوت ماريا ديمتريفنا الجهير من الناحية الأخرى للمائدة فجأة تسأل الرجال :

— ما سر كل هذه الضجة التى تقيمونها هناك ؟

ووجهت إلى العقيد الكلام قائلة :

— وفيم تدق أنت المائدة ؟ وضد من تثور حميتك إلى هذه الدرجة ؟ أتراك تظن أن الفرنسيين هنا أمامك ؟

فقال الهوسار باسماً :

— كنت أقول الحقيقة .

وصاح الكونت عبر المائدة :

— الحديث كله عن الحرب . فابنى ذاهب إليها كما ترين يا ماريا ديمتريفنا . ابنى ذاهب أيضاً !

فرد عليه صوت ماريا ديمتريفنا مجلجلا عميقاً ، بدون أدنى مجهود من أقصى المائدة :

— وأنا لى فى الحرب أربعة أبناء ، ولكنى غير مكروبة . فكل شىء فى يد الله تعالى ، وقد يموت المرء فى فراشه ويسلم من كل خدش فى ساحة الوغى !

— هذا صحيح !

وانقسمت الأحاديث إلى فريقين مرة أخرى . أحدهما فى ناحية الرجال والآخر فى ناحية النساء .

وقال لنتاشا أخوها الصغير :

— أنت لا تجسرين على السؤال . ولهذا لا تسألين .

فأجابته نتاشا :

— بل سأسأل !

وتوهج وجهها فجأة بعزيمة مستبسلة زائطة . ونهضت من مكانها ، وعيناها تدعوان بيير إلى الإصغاء ، ووجهت الكلام إلى أمها ، فارتفع صوتها الرنان فى القاعة :

— ماما !

فسألتها الكونتس فى فزع :

— ما الخبر ؟

ولكنها رأت فى وجه ابنتها نزعة الشيطنة ، فهزت لها رأسها متوعدة

فى صرامة ، وصمت كل حديث ، وفى هذا السكون رن صوت نتاشا الصغير بمزيد من الإصرار والتعمد والروية :

– ماما ! أى نوع من البودنج سنتناوله اليوم ؟

وحاولت الكونتس أن تعبس وتقطب ، ولكنها لم تستطع . وهزت ماريا ديمتريفنا إصبعها السمينة ، وقالت لها متوعدة !

– يا قوزاق !

ونظر معظم الضيوف إلى الوالدين ، وهم لا يدرون كيف سيواجهان هذا الموقف . وقالت الكونتس لنتاشا :

– سأعرف كيف أعاقبك !

فصاحت نتاشا بمرح جرىء حريف ، وهى واثقة أن مجونها سيحمل على محمله الصحيح :

– ماما ! أى نوع من البودنج سيقدم اليوم ؟

وجعلت سونيا وبتيا الصغير البدين يواريان ضحكهما الطفلى . والتفتت نتاشا وقالت همساً لأخيها الصغير وبيير ، اللذين عادت تنظر إليهما :

– ها أنتما تريان أنى سألت !

وقالت ماريا ديمتريفنا :

– بودنج مثلج ، ولكنك لن تنالى منه شيئاً .

ورأت نتاشا أنه ليس هناك ما تخشاه ، ولذا لم تخف حتى من ماريا ديمتريفنا ، وراحت تسألها :

– يا ماريا ديمتريفنا . أى نوع من البودنج المثلج هذا ؟ فأنا لا أحب الآيس كريم !

– بودنج الجزر المثلج !

وعادت تسألها وهى تكاد تصرخ هذه المرة :

– لا . أسألك بجد ، أى نوع من البودنج المثلج هو يا ماريا ديمتريفنا ؟ أريد أن أعرف !

وانفجرت ماريا ديمتريفنا والكونتس ضاحكتين ، وحذت المجموعة الحاضرة كلها حذوهما . ضحك الجميع ، لا لخفة دم وبراعة كلام ماريا ديمتريفنا ، بل لشيطنة وجسارة الفتاة الصغيرة ، التى كانت لديها الشجاعة والبراعة لمحاورة ماريا ديمتريفنا بهذا الشكل .

ولم تسكت نتاشا إلى أن قيل لها إنه بودنج الأناناس المجمد ، وقبل تقديم المثلجات قدمت الشمبانيا ، ومرة أخرى صدحت أنغام الجوقة الموسيقية ، وقبل الكونت الكونتس ، ونهض المدعوون عن المائدة ليهنئوا الكونتس ، وصلصلت الكئوس عبر المائدة عندما قارعوا كأس الكونت ، وكئوس بعضهم البعض ، حتى الأطفال .

ومرة أخرى اندفع السقاة ، وتحركت المقاعد بصريفها على الأرض الرخامية ، وبنفس ترتيب الدخول ، ولكن بوجوه شديدة الحمرة ، عاد الضيوف إلى قاعة الاستقبال وإلى مكتب الكونت .

- ١٧ -

ومدت موائد لعب الورق ، وتألفت مجموعات للعبة البوستن ، واستقر ضيوف الكونت فى قاعتى الاستقبال ، وقاعة الأرائك والمكتبة .

وأمسك الكونت بورقة على شكل مروحة ، وبصعوبة منع نفسه من الإغفاء كعادته بعد الغداء كل يوم ، وراح يضحك من كل شىء . وتجمع الشباب والصغار — بناء على اقتراح الكونتس — حول آلة الكلافيكورد الوترية وحول المزهر ، وألح الجميع على جولى أن تبدأ فى عرض مواهبها ، فعزفت على المزهر متنوعات ، ثم انضمت إلى سائر الفتيات فى الإلحاح على نتاشا ونيقولاى ، لأنهما كانا معروفين بمواهبهما الموسيقية ، كى يغنيا شيئاً ، وكان الجميع يعاملون نتاشا كما لو كانت شابة ، وكانت واضحة الزهو بذلك ، ولكنها تهيبت فى الوقت نفسه وركبها الحياء . وسألت :

— وماذا نغنى ؟

فقال نيقولاى :

— أغنية « النافورة » !

فقالت نتاشا :

— إذن فلنسرع . تعال هنا يا بوريس . ولكن أين سونيا ؟

وتلفتت حولها ، ولما رأت أن صديقتها ليست فى الحجرة ، جرت لتبحث عنها .

وبعد أن جرت إلى حجرة سونيا ولم تجدها هناك ، جرت نتاشا إلى حجرة الأطفال ، ولم تجد سونيا هناك أيضاً ، فعرفت نتاشا أنها لابد أن تكون فوق الصندوق فى الدهليز . وكان صندوق الدهليز المكان المختار لأحزان الجيل الصغير من إناث دار آل روستوف . نعم . كانت سونيا فوق الصندوق ، راقدة ووجهها إلى أسفل فوق حشية المربية القذرة تسحق تحتها الثوب الرقيق الوردى الذى ترتديه ، وقد خبأت وجهها بين أصابعها ، وراحت تبكى ، وكتفاها العاريتان تعلوان وتهبطان . وإذا بوجه نتاشا الذى كان متألقاً فى يوم عيدها طول النهار وقد تغير فجأة ، وأطلت من عينيها نظرة ثابتة ، ثم ارتعد عنقها ، وتهدلت زاويتا فمها ، وهتفت بها :

— سونيا ! ما الخبر ؟ ما الخطب ؟ ماذا بك ؟ .. أووووه !

وفتحت فمها الواسع ، وبدت ملامحها قبيحة وبكت كالطفلة الصغيرة من غير أن تدرى لماذا ، فيما عدا أن سونيا كانت تبكى . وحاولت سونيا أن ترفع رأسها ، وأن تجيب ، ولكنها لم تستطع ، ودفنت وجهها مرة أخرى ، أكثر من ذى قبل . وبكت نتاشا جالسة على حرف الفراش القذر وراحت تحتضن صديقتها . وبذلت سونيا كل جهدها ، ونهضت ، وبدأت تجفف دموعها وتتكلم :

— نيقولاى ذاهب . راحل بعد أسبوع . ورقته ... وصلت ... وهو بنفسه أخبرنى ... ولكن مع هذا ينبغى ألا أبكى ...

وأرتها ورقة كانت فى يدها ، وعليها أشعار نظمها نيقولاى ، وأردفت :

— كان ينبغى ألا أبكى ... ولكنك لا تستطيعين ... لا أحد يستطيع أن يفهم ... كم هو طيب ونبيل !

ومرة أخرى راحت تبكى لمجرد تفكيرها فى نبل روحه . ثم قالت وهى تتمالك نفسها قليلا :

— أنت بخير حال ... أنا لا أحسدك فأنا أحبك وبوريس أيضاً .. إنه لطيف جداً ... وليس فى طريقكما عقبات . ولكن نيقولاى ابن خالى . ولا بد أن يصرح لنا المطران نفسه ... وإلا فذلك مستحيل . ولذا ، لو عرفت ماما (وكانت تعد الكونتس أمها وتناديها هكذا) لقالت إنى أفسد مستقبل نيقولاى ، وإننى لا قلب لى ، وناكرة للجميل ، مع إننى فى الحقيقة ... وأقسم باسم الرب (ورسمت علامة الصليب) أحبها جداً ، وأحبكم جميعاً ، ولكن فيرا ... لماذا تفعل ذلك ؟ ... ماذا تراى صنعت لها ؟ أنا عارفة لفضلكم حتى إننى مستعدة للتضحية بكل شىء من أجلكم ، ولكنى لا أملك شيئاً .

ولم تستطع سونيا أن تقول أكثر من هذا ، وعادت تدفن وجهها فى يديها ، وفى فراش المربية الذى فوق الصندوق ، وحاولت نتاشا أن تسرى عنها ، ولكن وجهها كان ينطق بأنها مدركة خطورة متاعب صديقتها . وفجأة قالت ، كأنها عرفت سر تعاسة ابنة عمها :

— سونيا ! طبعاً كانت فيرا تتحدث إليك بعد الغداء ! أليس كذلك ؟

— بلى ! هذه الأشعار نيقولاى هو الذى كتبها بنفسه ، وقد نسخت أشعاراً أخرى ، ووجدتها فيرا على منضدتى ، وقالت إنها ستريها لماما ، وقالت أيضاً إننى جاحدة للجميل ، وإن ماما لن تسمح له بالزواج منى ، بل سوف يتزوج جولى ... وها أنت رأيت كيف كان معها طول النهار ... نتاشا ... لم هذا ؟

ومن جديد راحت تبكى بحرقة أكثر من ذى قبل ، فرفعتها نتاشا واحتضنتها ، وبدأت تسرى عنها وهى تبتسم من خلال دموعها :

— لا تصدقيها يا سونيا يا عزيزتى ، لا تصدقيها . أتتذكرين كيف تكلمنا مع نيقولاى ، ثلاثتنا معاً ، فى حجرة الأرائك ؟ أتتذكرين ، بعد العشاء ؟ لقد رتبنا كيف ينبغى أن يكون كل شىء . ولست أتذكر تماماً الآن ، ولكن ألا تتذكرين ؟ لقد كان كل شىء فى تلك الليلة على ما يرام ، وممكناً تماماً . لماذا ؟ إن شقيق خالنا شنشين متزوج من ابنة عمه مباشرة ، ونحن أقارب وبنات عمة أو بنات خال من الدرجة الثانية ، وبوريس قال إن هذا كله ممكن ومن السهل تذليله . وأنت تعرفين إنى أخبرته بكل شىء ، وهو بارع جداً وطيب جداً ... لا تبكى يا سونيا يا حبيبتى يا صديقتى الغالية سونيا ...

وقبلتها ضاحكة ، واستطردت :

— فيرا حقود ، فلا تبالى بها . وسينتهى كل شىء على ما يرام ،

وهى لن تخبر ماما . ونيقولاى نفسه هو الذى سيخبرها ، وهــو لم يفكر قط فى جولى .

وقبلتها على رأسها ، فنهضت سونيا ، وعادت القطة لحيويتها ، وومضت عيناها، وغدت متأهبة فيما يبدو لهز ذيلها ، والقفز بمخالبها اللينة لتعبث بكرة من الصوف ، بطريقتها القططية المعهودة ، وقالت بسرعة وهى تسوى ثوبها وشعرها :

— أتعتقدين هذا ؟ حقاً وصدقاً ؟

فأجابتها نتاشا ، متباعدة لتسوى خصلة شعر شاردة فوق رأس صديقتها :

— حقاً وصدقاً !

وضحكتا معاً ، وقالت نتاشا :

— هيا إذن وغنى معنا أغنية الربيع .

— هيا بنــا .

وتوقفت نتاشا فجأة وقالت :

— أتعرفين أن بيير الذى كان جالساً قبالتى مضحك جداً ؟ أنا مستمتعة جداً بهذا اليوم . .

وراحت نتاشا تجرى عبر الدهليز ...

أما سونيا فنفضت عن ثوبها الريش العالق به من فراش المربية فوق الصندوق ، ودست صحيفة الشعر فى صدرها فوق عظام صدرها البارزة ، وبخطوات خفيفة سعيدة انطلقت تتبع نتاشا إلى حجرة

الأرائك . وبناء على طلب الضيوف غنى الشباب رباعية الربيع ، التى سر لها الجميع ، ثم غنى نيقولاى أغنية كان قد تعلمها أخيراً :

« ما أعذب ضياء القمر الحنون »
« إنه فى الخيال يقول لك
« إن الدنيا ما زال فيها شخص عزيز عليك !
« كل أفكاره وأحلامه بك أنت !
« وإن أناملها الجميلة كما فى الماضى
« لم تزل تداعب الأوتار الذهبية للقيثارة
« فى نغم عاطفى عذب
« يدعوك أنت إليــه
« ففى غد تتحقق سعادتك !
« ولكن واأسفاه ! مضى كل شىء
« وهى لم تعدها هنا » .

وما كاد ينتهى من غناء السطر الأخير حتى كان الشباب يتأهبون للرقص فى البهو الكبير ، وبدأ الموسيقيون يدقون الأرض بأقدامهم ويسعلون فى مقاعد جوقتهم .

* * *

وكان بيير جالساً فى حجرة الاستقبال ، حيث شرع شنشين فى الحديث معه عن الموقف السياسى ، بما أنه موضوع من المرجح أن يكون شائقاً لدى شخص عاد لتوه من الخارج ، وإن كان ذلك لا يعنى

بيير كثيراً . وانضم آخرون إلى الحديث . ولما بدأ الأوركسترا فى العزف دخلت نتاشا إلى حجرة الاستقبال واتجهت فوراً إلى بيير ، وضحكت واحمر وجهها وقالت له :

– ماما طلبت منى أن أدعوك للرقص !

فقال بيير :

– أخشى أن أخطىء وأربك التشكيلات .. ولكن إذا كنت أنت التى ستعلمنى ..

وقدم يده السمينة إلى الفتاة الصغيرة النحيلة ، خافضاً ذراعه ليصل إلى مستواها .

وبينما كان أزواج المتراقصين يصفون أنفسهم ، والموسيقيون يضبطون آلاتهم ، جلس بيير مع زميلته الصغيرة . وكانت نتاشا سعيدة للغاية ، لأنها سترقص مع شاب مكتمل النمو حضر لتوه من خارج البلاد . وها هى جالسة على مرأى ومسمع من الجميع تتحدث إليه كأنها فتاة مكتملة النمو . وكانت فى يدها مروحة كانت إحدى السيدات قد أعطتها إياها لتمسكها ، واتخذت أحدث وضع على آخر موضة (والله وحده أعلم أين ومتى تعلمته !) وراحت تحرك المروحة وتجلب بها الهواء والابتسامة تغمر وجهها كله ، وهى تحدث زميلها فى الرقص .

وقالت الكونتس الكبيرة . وهى تعبر البهو الكبير وتشير إلى نتاشا :

– يا لها من فتاة ! انظروا إليها ! انظروا إليها !

فتضرج وجه نتاشا بالحمرة وضحكت وقالت :

– لماذا ؟ ماذا تعنين يا ماما ؟ لماذا تضحكين منى ؟ أفى هذا شىء غريب ؟

* * *

وفى منتصف الرقصة الإسكتلندية الثالثة سمعت أصوات تحريك الكراسى فى حجرة الاستقبال ، حيث كان الكونت وماريا ديمتريفنا يلعبان ، أما معظم المدعوين المسنين فكانوا يبسطون قاماتهم بعد طول الجلوس ويتمطون ، ووضعوا أكياس نقودهم فى جيوبهم ثم خرجوا إلى باب البهو الكبير . وفى مقدمة الجميع أقبلت ماريا ديمتريفنا والكونت بوجهين متألقين من البشر . ومد الكونت ذراعه وقد ثناه فصار كالطوق إلى ماريا ديمتريفنا فى حركة رسمية مبالغ فيها على سبيل الدعابة ، كأنه راقص باليه . وشد قامته ، وتهلل وجهه بابتسامة أنيقة مرحة ، وما أن انتهيا من رقص آخر تشكيلات الرقصة الإسكتلندية ، حتى صفق بيديه للجوقة الموسيقية وصاح بعازف الفيولينا الأول :

– سيميون ! أتعرف مقطوعة دانييل كوبر ؟

وكانت هذه رقصة الكونت المفضلة التى كان يرقصها فى شبابه (ودانييل كوبر كان اسم تشكيل من تشكيلات الرقصة الإنجليزية) .

وصاحت نتاشا تخاطب الحجرة كلها (وقد نسيت تماماً أنها تراقص

رجلا تام النمو) وهى تنحنى حتى كادت غدائر شعرها تلمس ركبتيها ، وانطلقت تضحك ضحكتها المجلجلة التى رنت فى القاعة كلها بعد أن قالت :

– انظروا جميعاً إلى بابا ؟

وكان كل واحد فى البهو فى الحقيقة ينظر بسرور ومرح إلى ذلك السيد المسن ، وهو واقف إلى جوار زميلته المهيبة العملاقة ، ماريا ديمتريفنا ، التى كانت أطول منه بكثير ، وقد ثنى ذراعيه ، وراح يحركهما على إيقاع الموسيقى ، ويحرك كتفيه ، وساقيه ، ويدق الأرض بكعبيه بلطف ، والابتسامة تزداد فوق وجهه المستدير اتساعاً ، ليعد بذلك المشاهدين لما سيكون . وما أن عزفت الموسيقى مقطوعة « دانيل كوبر » المرحة التى لا يقاومها الجسم والأعصاب – وهى أشبه بالترياك الروسية ولكنها أسرع إيقاعاً – حتى امتلأت كل فتحات أبواب البهو الكبير بالوجوه الباسمة ، وجوه عبيد الدار ، الرجال منهم فى جانب ، والإناث فى الجانب الآخر ، وقد صعدوا ليشهدوا مولاهم فى مرحه ونشاطه .

وقالت المربية العجوز بصوت مرتفع عند أحد الأبواب :

– أبونا الصغير ! إنه لملك كريم !

وأجاد الكونت الرقص ، وكان يعلم أنه يجيده ، ولكن زميلته لم تستطع الرقص على الإطلاق ، ولم تأبه للرقص وإجادته ، فظلت قامتها الضخمة ثابتة فى مكانها ، وذراعاها الهائلتان مسترخيتان إلى

جنبيها (وكانت قد أعطت حقيبتها للكونتس) ولكن وجهها الصارم – إلا أنه أنيس – كان هو الذى يقوم بكل تعبيرات الرقص . وما عبر عنه الكونت بشخصه كله ، كانت ماريا ديمتريفنا تعبر عنه أكثر وأكثر بسحنتها المتهللة وأنفها المتغضن . وبينما كان الكونت يسحر المشاهدين ببذل جهد متزايد من حركاته غير المتوقعة الرشيقة من ساقيه الدقيقتين ، كانت ماريا ديمتريفنا بأقل جهد تعبر عنه بحركات كتفيها وذراعيها ، على إيقاع النغم . وأحياناً تدق الأرض بقدميها . فكانت المفارقة التامة بين قامته القصيرة وقامتها الجبارة ، وبين طريقة كل منهما فى التعبير مثار سرور عظيم للجميع . وزادت حرارة الرقص . وكانت نتاشا تجذب كم وثوب كل واحد من الحاضرين تحثهم على أن ينظروا إلى « بابا » ، مع أنهم لم يحولوا قط أنظارهم عن الراقصين المتناقضين .

وفى لحظة توقف الرقص كان الكونت يأخذ نفساً عميقاً ، ويلوح بيديه ويصيح بالموسيقيين كى يعزفوا بسرعة أكبر . وتزداد سرعة عزفهم ، وسرعة حركات الكونت ودوراته البارعة ، يدور تارة على عقبيه ، وتارة على أطراف أصابعه ، حول ماريا ديمتريفنا . وأخيراً دار بالسيدة حتى أوصلها إلى مكانها ، وقام بالحركات الأخيرة ، وهى الرقص بساقيه إلى الخلف ، وانحنى وابتسم ، بحركة واسعة من ذراعه اليمنى ، وسط عاصفة من التصفيق والضحك ، كانت ضحكات نتاشا أعلاها صوتاً .

ووقف كل من الزميلين فى مكانيهما يتنفسان بعمق ، ويمسحان عرقهما بمنديليهما . وقال الكونت :

– هكذا كانوا يرقصون فى أيامى يا عزيزتى .

فقالت ماريا ديمتريفنا ، وهى تشمر كميها وتسحب نفساً طويلا عميقاً :

– برافو ! برافو يا دانييل كوبر !

– ١٨ –

وبينما كانوا يرقصون فى بهو آل روستوف الرقصة الإنجليزية السادسة . وبينما الفرقة الموسيقية تعزف أنغاماً مغلوطة من فرط الإعياء ، وكان السقاة والطاهى المجهدون يتناولون العشاء ، كان الكونت بيزوهوف قد أصيب بنوبته السادسة . وأعلن الأطباء أنه لا أمل فى الشفاء . وتلقى العليل الأسرار المقدسة والغفران وهو فاقد الوعى . وأعدت العدة لمسحه بالزيت المقدس ، وكان بيته يعج بالحركة والأصوات والتوتر والتوقع المألوف فى مثل هذه الظروف . وخارج البيت كان مقاولو الجنازات متجمعين أمام الأبواب ، محاولين تجنب أن تقع عليهم عيون من فى العربات التى تدخل الفناء، ومتطلعين فى الوقت نفسه إلى سماع «البشارة» بإعداد مايلزم للجنازة . وكان محافظ موسكو الذى لا يفتأ يرسل ياوره للسؤال عن حالة الكونت قد جاء بنفسه فى هذا المساء ليقول وداعاً للرجل الذى كان من أكبر نجوم بلاط الإمبراطورة كاترين : الكونت بيزوهوف .

وكانت قاعة الاستقبال الفخمة غاصة بالناس ، ووقف الجميع باحترام عندما جاء محافظ موسكو وحاكمها ، بعد أن قضى حوالى نصف الساعة وحده مع الرجل المريض ، ودخل القاعة ، ورد باقتضاب على الانحناءات التى تلقاها ، وحاول التهرب بأسرع ما يمكن من نظرات الأطباء . والشخصيات الكنسية والأقارب . أما الأمير فاسيلى . الذى كان قد شحب وهزل فى بضعة الأيام الأخيرة فقد صحب المحافظ إلى الخارج . وكرر على مسامعه شيئاً ما عدة مرات .

وبعد أن ودع المحافظ ، جلس الأمير فاسيلى فى مقعد بالبهو وحده ، واضعاً إحدى رجليه فوق الأخرى ، ومتكئاً بكوعه على ركبته ، وغطى عينيه بيده ، وبعد أن ظل جالساً هناك بعض الوقت نهض ، وبخطوات أسرع من عادته عبر الدهليز الطويل ، ونظر فيما حوله بعينين مروعتين ، ثم توجه إلى القسم الخلفى من الدار . حيث جناح الأميرة الكبرى .

وكان الناس الذين تركهم فى حجرة الاستقبال المضاءة بجوار حجرة المريض يتكلمون فيما بينهم بصوت هامس متقطع . ويتوقفون وينظرون حولهم بعيونهم الناطقة بالتوقع والتساؤل فى أى لحظة يصدر صرير يشى بانفتاح باب حجرة المريض ليدخل أحد أو يخرج منه .

وقال رجل قصير ، من رجال الكنيسة . لسيدة كانت جالسة بقربه تصغى لكلماته بسذاجة :

— مدة حياة الإنسان محدودة منذ الأزل ، ولا سبيل إلى تجاوزها.

وتساءلت السيدة، مستخدمة لقبه الكهنوتى، ويبدو أنه ليست لديها فكرة عن الموضوع :

— أخشى أن يكون الوقت قد تأخر لمسحه بالزيت المقدس .

فقال الكاهن ، وهو يمر بيده على رأسه الأصلع ، الذى لم تزل به بعض شعرات بيضاء عنى بتمشيطها :

— إنه سر خطير يا سيدتى من أسرار الكنيسة .

وفى الجانب الآخر من الحجرة كانوا يتساءلون :

— من كان هذا الزائر ؟ أهو المحافظ بنفسه ؟ كم يبدو شاباً فى مقتبل العمر !

— مع أنه تجاوز الستين ! ولكن ماذا يقولون ؟ أحقاً إن الكونت لا يعرف أحداً ؟ أهم ينوون مسحه بالزيت المقدس ؟

— هوه ! أنا شخصياً أعرف رجلا مسحوه بالزيت المقدس المسحة الأخيرة سبع مرات !

* * *

وخرجت الأميرة الثانية من حجرة المريض دامعة العينين ، وجلست بجوار الدكتور لوران ، الذى كان جالساً فى وضع رشيق تحت صورة الإمبراطورة كاترين ، وكوعه على المائدة .

وقال الطبيب رداً على سؤال عن الجو :

— بديع جداً يا أميرة . بديع جداً . حتى إن الإنسان فى موسكو يكاد يحسب نفسه فى الريف .

وقالت الأميرة وهى تتنهد :

— أليس كذلك ؟

وقال الطبيب فى نفسه بعد لحظة :

— ألا ينوون أن يقدموا له شيئاً يشربه ؟

ولكنه قال بصوت مرتفع :

— هل تناول دواءه ؟

— نعم !

ونظر الطبيب فى أوراقه ، ثم قال لها :

— ضعى له فى كوب من الماء المغلى قبضة من الدواء .

وأشار بيده إشارة باريسية أنيقة ليريها ما يقصده بالقبضة .

وقال الطبيب الألمانى للياور فى لغة روسية مكسرة :

— لم يحدث أبداً من قبل أن شفى أحد بعد النوبة القلبية الثالثة .

فقال الياور همساً :

— يا له من رجل قوى ! ترى إلى من تئول ثروته الهائلة !

فقال الألمانى باسماً :

— لا تقلق ! سيظهر المطالبون بكثرة !

وتلفت كل واحد نحو الباب الذى صدر منه صرير لدخول

الأميرة الثانية لتنفذ تعليمات الدكتور لوران ، واتجه الطبيب الألمانى نحو لوران . وسأله بلكنة فرنسية رديئة :

– هل سيظل الحال على ما هو حتى صباح الغد ؟

فهز لوران سبابته أمام أنفه سلباً ، وزم شفتيه فى صمت ، ثم قال بصوت خافت :

– الليلة ، على الأكثر .. ينتهى كل شىء .

وبكل الرضا عن نفسه لتمكنه من الحكم على حالة المريض بالضبط، نهض مبتعداً .

* * *

وفى هذه الأثناء كان الأمير فاسيلى قد فتح باب حجرة الأميرة .

وكان الظلام سائداً فى الحجرة ، فقد كان هناك مصباحان فقط مشتعلان أمام الصور المقدسة ، وكانت هناك رائحة عطرة للزهور والبخور ، والحجرة كلها مؤثثة بأثاث صغير الحجم ، وأصونة صغيرة ، ورفوف كتب صغيرة ، ومناضد صغيرة . ومن وراء ستار كانت تبدو الأغطية البيضاء لفراش مرتفع من الريش . ونبح كلب صغير .

– آه ! أهذا أنت يابن العم !

ووقفت وسوت شعرها ، الذى كان دائماً – وحتى فى هذه اللحظة – ناعماً جداً كأنما هو ورأسها قطعة واحدة مطلية . وسألته قائلة :

– هل حدث شىء ؟ أنا فى ذعر متصل .

فقال الأمير وهو يجلس بإعياء فى مقعد منخفض كانت هى قد قامت عنه :

– لا شىء . لا شىء تغير . لقد أتيت فقط لأتحدث معك قليلا فى العمل يا كاتيش Katish ، . ما أشد الدفء هنا . اجلسى هنا ولنتكلم . فقالت الأميرة وسحنتها الصخرية لم تتغير ، وهى تجلس قبالة الأمير وتستعد للإصغاء :

– ظننت شيئاً قد حدث . وكنت أحاول أن أنام قليلا يا ابن العم ولكنى لم أستطع .

فقال الأمير فاسيلى متناولا يد الأميرة وخافضاً إياها إلى أسفل كعادته :

– وما العمل ياعزيزتى ؟

وكانت « وما العمل » هذه إشارة إلى أمور كثيرة يفهمها كلاهما من غير حاجة إلى تحديدها بألفاظ .

ونظرت الأميرة وهى منتصبة القامة فى جلستها إلى الأمير نظرة مباشرة ولم تظهر فى عينيها الرماديتين البارزتين أى بادرة انفعال . وهزت رأسها وتنهدت ثم حولت نظرها إلى الصور المقدسة ، فى حركة يمكن تأويلها بأنها تعبير عن الحزن والتدين ، أو تعبير عن الإعياء والأمل فى خلاص قريب . وفهمها الأمير فاسيلى على أنها تعبير عن الإعياء . وقال :

– وهل تخالين الأمر أسهل على شخصياً ؟ أنا شديد الشعور

بالإعياء ، ولا بد لى من الكلام معك يا كاتيش ، بكل جدية .

وتوقف الأمير فاسيلى ، وبدأ خداه يرتجفان بعصبية ، على هذا الجانب ، ثم على الجانب الآخر ، فكسا ذلك وجهه تعبيراً غير مستحب ، لم يره قط أحد وهو فى حجرات استقبال ، وعيناه أيضاً كانت مختلفتين عن العادة ، فى لحظة ما كان يحملق بوقاحة مازحة ، وفى اللحظة التالية كان ينظر فيما حوله نظرة مكر مختلسة .

وجذبت الأميرة كلبها على حجرها بيديها النحيلتين الجافتين ، ونظرت فى عينى الأمير فاسيلى ، ولكن كان واضحاً عليها أنها لا تريد أن تحطم الصمت ، ولو جلست جامدة صامتة حتى الصباح ! فتابع الأمير فاسيلى قوله ، وكان واضحاً أنه يعانى من استجماع نفسه ليواصل ما يريد الإفضاء به :

– ها أنت ترين يا بنت عمى العزيزة كاترينا سميونوفنا Katrina Simionovna أن المرء فى مثل هذه الأوقات عليه أن يفكر فى كل شىء . فعليه أن يفكر فى المستقبل ، وفيكن ... وأنا أفكر فيكن جميعاً كما لو كنتن بناتى ، كما تعلمين .

ونظرت إليه الأميرة بنفس النظرة الخاملة الثابتة . واستطرد الأمير فاسيلى دافعاً إحدى المناضد الصغيرة بغضب من غير أن ينظر إلى الأميرة :

– ثم يجب أن أفكر فى أسرتى أيضاً . فأنت تعلمين يا كاتيش أن ثلاثتكن ، الشقيقتان مامونتوف Mamontov وزوجتى ،

الورثة الوحيدون المباشرون للكونت . وأنا أعلم كم هو مؤلم لك أن تفكرى وتتكلمى فى هذه الأمور ، وهذا صعب على أنا أيضاً . ولكنى يا عزيزتى رجل تجاوز الخمسين ، ويجب أن أكون مستعداً لأى شىء . أتعلمين أنى أرسلت فى طلب بيير وأن الكونت أشار إلى صورته وسأل عنه ؟

ونظر الأمير فاسيلى بتساؤل إلى الأميرة ، ولكنه لم يستطع أن يعرف أهى تفكر فيما قال أم تحدق فيه فقط . وأجابته قائلة :

– إنى أضرع إلى الله طالبة منه شيئاً واحداً فقط باستمرار ، يا ابن العم ، وهو أن يرحمه ويسمح لروحه النبيلة أن تغادر ... فأكمل الأمير فاسيلى عبارتها فى صبر نافد وهو يدعك رأسه الأصلع ويحرك المنضدة بغضب ليجذبها نحوه :

– طبعاً . هذا صحيح ... ولكن الواقع – كما تدركين أنت – أن الكونت كتب وصية فى الشتاء الماضى تخطانا فيها نحن ورثته المباشرين جميعاً ، تاركاً كل ثروته لبيير !

فقالت الأميرة برباطة جأش :

– لعله كتب العديد من هذه الوصايا ، ولكنه لا يمكن أن يترك كل شىء لبيير ، فبيير ابن غير شرعى .

فقال الأمير فجأة ، وهو يجذب المنضدة إلى أن التصقت به ، وكان يتكلم بمزيد من الحرارة والسرعة :

– يا عزيزتى ! ولكن ماذا لو أنه كان قد حرر خطاباً إلى

الإمبراطور والتمس منه أن يجعل بيير ابنه الشرعى؟ وأنت تعرفين أن خدمات الكونت للأسرة القيصرية تجيز له إجابة هذا الالتماس وتجعل له وزنه .

وابتسمت الأميرة ابتسامة من يعتقدون أنهم يعرفون عن هذه الأمور أكثر مما يعرفه عنها من يتحدثون إليه . واستطرد الأمير :

– بل وأستطيع أن أقول ما هو أكثر من هذا . إن هذه الرسالة كتبت وإن كانت لم ترسل ، وأن الإمبراطور سمع بها . والمسألة كلها هل أعدمت هذه الرسالة أم لا ؟ فإن لم تكن قد أعدمت ، فمتى تم كل شىء ، وفتحت أوراق الكونت ، سلمت الوصية والرسالة إلى الإمبراطور . وعندئذ ينتهى كل شىء . فإن هذا الالتماس سوف يجاب حتماً ، ويحصل بيير بوصفه الابن الشرعى على كل شىء .

وسألته الأميرة باسمة فى سخرية كأنما أى شىء يمكن أن يحدث عدا هذا .

– وماذا عن نصيبنا ؟

– لماذا يا كاتيش المسكينة . الأمر واضح كالشمس . إنه عندئذ يصير الوارث الشرعى الوحيد لكل شىء . ولن تنالى قيد أنملة . فيجب أن تعرفى ياعزيزتى هل الوصية والالتماس أعدما ، وإن لم يكونا أعدما يجب أن تعرفى أين هما وتعثرى عليهما لأن ....

فقاطعته الأميرة باسمة بتهكم ومن غير تغير فى تعبير وجهها :

– هذا يكون تجاوزاً لكل حد . وإنى وإن كنت امرأة ، وأنت

تحسبنا لا نفقه شيئاً ، إلا أنى أعرف على الأقل أن الابن غير الشرعى لا يرث .

وترجمت له لفظ الابن الشرعى إلى الفرنسية ، كأنما هذه الترجمة كافية لإثبات بطلان مزاعمه .

– بل أنت لا تفهمين فعلا يا كاتيش ! وكيف مع ذكائك لا تدركين أن الكونت كتب رسالة للإمبراطور ، يرجو منه فيها أن يعترف ببيير ابناً شرعياً له يرث عندئذ اللقب وكل ممتلكاته . لن يعود اسمه ببيير ، بل الكونت بيزوهوف ، ويرث بمقتضى الوصية كل شىء ! وما لم تكن الوصية والعريضة قد أعدمتا ، فانتظرى فى هذه الحالة جزاء إخلاصك حرماناً من كل شىء . وهذه هى الحقيقة !

فقالت الأميرة بلهجة المرأة التى تظن نفسها قالت شيئاً بارعاً لاذعاً :

– أنا أعرف أنه كتب وصية ، ولكنى أعرف أنها باطلة ، مهما ظننت بى السذاجة والبلاهة يا ابن العم !

فقال الأمير فاسيلى وهو يستنجد ببقية صبره :

– يا عزيزتى الأميرة كاترينا سيميونوفنا ! لقد أتيت إليك لا لأستثيرك ، بل لحديث معك كقريبة لى طيبة القلب أحرص على مصالحها . وأقول لك للمرة العاشرة : إن وصية الكونت وعريضته إلى الإمبراطور لصالح بيير موجودتان بين أوراقه . وإنك أنت ،

وأختيك لسنا ورثته ، فإن لم تصدقيني صدق من يعرفون هذه الأمور . وقد تحدثت منذ قليل إلى ديمترى أونوفريتوش محامى الأسرة Dimitri Onovritosh ، وقال لى نفس ما قلته لك .

وطرأ تغير مفاجئ على تفكير الأميرة ، فابيضت شفتاها النحيلتان (وإن لم تتغير نظراتها) ، وعندما شرعت تتكلم طرأت على صوتها تحولات لم تكن هى نفسها تتوقعها ، وأنزلت كلبها عن حجرها وسوت ثوبها :

– كم يكون هذا جميلا ! وأنا لم أكن أريد شيئاً ، ولا أريد شيئاً ! آه ! هذا إذن جزاء الولاء لمن ضحين كل شيء لأجله ؟ جميل جداً هذا ! رائع ! أنا لا أريد شيئاً يا أمير .

– طبعاً . ولكنك لست وحدك ! لك شقيقتان !

– ولكن الأميرة لم تعر كلامه التفاتاً ، واستطردت :

– كنت أعلم أن هذه ستكون النتيجة منذ مدة طويلة ، ولكنى نسيت أنى لن أتوقع من هذا البيت المنحط إلا كل انحطاط ، وغش ، وحقد ، وخداع . لاشيء سوى الجحود .. الجحود الأسود المنكود !

فسألها الأمير وقد زاد ارتجاف خديه :

– أتعرفين أين الوصية أم لا تعرفين ؟

– أجل . كنت مغفلة ! كنت ما أزال أثق بالناس وأهتم بهم وضحيت بنفسى . ولكن لا فلاح إلا لمن كانوا أشراراً منحطين . وأنا أعرف تدبير من هذا !

وهمت الأميرة بالقيام ، ولكن الأمير أمسك بذراعها ، وكان بادياً عليها أنها فقدت الثقة فجأة بالبشرية جمعاء . ونظرت شزراً إلى محدثها الذى قال لها :

– لا تذكرى يا عزيزتى أنه لم يزل هناك وقت ، وأن كل هذا حدث فى لحظة غضب ومرض ثم نسى أمره . فواجبنا يا بنيتى أن نصحح هذا الخطأ ، وأن نخفف أوزاره بألا ندعه يرتكب هذا الإثم الأخير ، فلا يموت وقد أشقى من ....

فأكملت له الأميرة عبارته وهى تبذل جهداً آخر للقيام ، ولكن الأمير عاد يمسكها :

– من ضحوا بأنفسهم لأجله ، وضحوا بكل شيء . تضحيات لم يعرف كيف يقدرها . كلا يا بن عمى ! سأتذكر دائماً أن المرء ينبغى ألا يتوقع جزاء فى هذا العالم الذى خلا من الشرف والعدل . فلا نجاح فيه إلا للأشرار والماكرين !

– وبعد ؟ اهدئى ! أنا أعرف مبلغ نبل فؤادك !

– كلا ! بل فؤادى شرير !

– أنا أعرف فؤادك ، وأقدر عواطفك ، وأريد أن يكون رأيك فى مثل رأيى فيك . اهدئى كى نتكلم بالعقل قبل فوات الأوان . الوقت الذى أمامنا ليس أكثر من أربع وعشرين ساعة ، بل ربما لن يزيد عن ساعة واحدة . خبرينى بكل ما تعرفين عن الوصية . وأهم من هذا أين هى ؟ لابد أنك تعرفين . وسنأخذها الآن فوراً ونريها

للكونت . ولا شك أنه نسى أمرها ويود أن يعدمها . وأنت تعرفين أنى أريد أن أنفذ رغباته الأخيرة بمقتضى الدين . وهذا هو سبب حضورى . فأنا موجود هنا لخيره وخيركن .

– الآن فهمت كل شيء . وعرفت تدبير من هذا كله ...

– ليس هذا هو المهم يا عزيزتى .

– إنها تدبيرات ومكائد قريبتك أنا ميهالفنا التى تشملها برعايتك ، ولا أرضاها خادمة لى ! هذه القذرة !

– لا تضيعى الوقت فى كلام لا فائدة منه !

– دعنى أتكلم ! فى الشتاء الماضى جاءت عنوة إلى هنا وقالت كومة من الأكاذيب الحقيرة والحكايات الملفقة عنا جميعاً للكونت ، ولا سيما عن صوفى – أكاذيب لا أستطيع أن أكررها ، وعلى إثرها خر الكونت مريضاً ، وظل يرفض رؤيتنا أسبوعين . وأنا متأكدة أنه فى ذلك الوقت كتب الوصية القذرة البغيضة ، ولكنى ظننتها بلا قيمة .

– آه ! هذا هو الكلام ! ولماذا لم تخبرينا بذلك من قبل ؟

– وهى فى الحافظة المرصعة التى يضعها تحت وسادته . الآن عرفت ! وإن كانت لى خطيئة فهى كراهيتى لهذه المرأة الساقلة . ثم لماذا تقحم نفسها هنا ! سأسوى حسابى معها ! سيأتى وقت ذلك قريباً !

– ١٩ –

وفى الوقت الذى كانت فيه هذه الأحاديث دائرة فى حجرة استقبال الأميرة ، وصلت عربة فيها بيير (الذى بعث فى طلبه) وأنا ميهايلفنا (التى رأت من المناسب حضورها معه) ووقفت فى فناء قصر الكونت بيزوهوف . ولما خف ضجيج العجلات بالقش المفروش فى الشارع التفتت أنا ميهالفنا إلى رفيقها بكلمات العزاء ، فاكتشفت أنه نائم فى ركنه من العربة ، فأيقظته ، فصحا وتبعها هابطاً من العربة ، وعندئذ فقط شرع يفكر فى مقابلته مع والده المحتضر بعد قليل . ولاحظ أن العربة لم تقف بمدخل الزوار ، بل بالباب الخلفى – وعند هبوطه أسرع رجلان فى لباس الحرفيين إلى التوارى بظل الجدار . ولاحظ بيير وجود عدد من أمثالهم واقفين فى ظل البيت على الجانبين . ولكن لا أنا ميهايلفنا ولا الحجاب ولا الحوذى أعاروا وجودهم اهتماماً ، فاستقر فى ذهنه أن وجودهم لا غبار عليه ، واقتفى خطوات أنا ميهايلفنا التى صعدت بخطوات سريعة السلم الخافت الضوء بدرجاته الحجرية ، وهى تحث بيير على الإسراع . ومع أنه ما كانت لديه فكرة عن ضرورة لقائه لأبيه ، ولا لماذا يجب أن يصعد من السلم الخلفى ، إلا أنه أذعن لتوجيهات أنا ميهايلفنا واستنتج أن هذا له حكمته . وفى منتصف السلم كادا يصطدمان ببضعة رجال يحملون الدلاء ويهبطون بسرعة . وتنحى الرجال ليسمحوا لها

بالصعود ، ولم يظهروا أى دهشة لرؤيتهما . وسألت أنا ميهالفنا أحدهم :

– أهذا هو جانب الأميرة من البيت ؟

فأجابها الحاجب بصوت عال ، كأنما كل شيء صار الآن مباحاً :

– نعم . هذا هو .

وقال بيير عندما وصل إلى بسطة السلم :

« لعل الكونت لم يطلبنى . فالأفضل أن أذهب إلى حجرتى » .

فقالت وهى تلمس يده بنفس الأسلوب الذى اتبعته مع ابنها فى الصباح :

– يا صديقى العزيز ! صدقنى . أنا متألمة مثلك ، ولكن عليك أن تكون رجلا .

– حقاً ؟ أليس الأفضل أن أذهب ؟

– يا صديقى العزيز ! انس الأخطاء التى ارتكبت فى حقك . تذكر أن أبوك . ولعله فى النزع الأخير . وأنا قد أحببتك منذ البداية كابن . ثق بى يا بيير ، ولن أنسى مصالحك .

ولم يفقه بيير كلمة واحدة ، ولكنه أذعن وتبعها ، إلى أن رآها تفتح الباب ، وكان الباب يفضى إلى دهليز السلم الخلفى . وفى الركن جلس خادم عجوز للأميرة يحيك جوارب صوفية . ولم يكن سبق لبيير الدخول إلى هذا القسم من الدار ، ولم يخطر له أن هذه الأجنحة

موجودة فيه . ولحقت بهما خادمة تحمل دورقاً وسألتها أنا ميهايلفنا (وهى تقول لها يا عزيزتى) عن صحة الأميرة ، وسحبت بيير وراءها فى الدهليز الحجرى . وكان الباب الأول على اليسار يفضى من الدهليز إلى غرف معيشة الأميرة . وكانت الخادمة التى تحمل الدورق فى عجلة من أمرها (وكل شيء فيما يبدو كان يجرى على قدم السرعة الآن فى هذه الدار) . ولم تغلق الباب وراءها ، وعندما مرت به أنا ميهايلفنا وبيير نظرا عن غير قصد إلى الداخل حيث كانت الأميرة الكبرى مع الأمير فاسيلى جالسين معاً يتحدثان . وعندما لمحهما الأمير فاسيلى بدرت منه حركة تدل على نفاد الصبر وتراجع إلى الخلف ، ووثبت الأميرة وبحركة عنيفة أقفلت الباب بكل قوتها فصفقته . وهى حركة لا تتفق والمعهود من رزانة الأميرة ، والذعر المرتسم على وجه الأمير فاسيلى كان بالغ المباينة لوقاره المعتاد ، حتى أن بيير وقف ينظر من فوق نظارته إلى رفيقته ومرشدته . أما أنا ميهايلفنا فلم تبد عليها الدهشة ، بل ابتسمت وتنهدت ، كأنما لتقول إنها تتوقع هذا كله ، وقالت رداً على نظراته المتسائلة :

– كن رجلا يا صديقى ، فأنا أرعى مصالحك ؟

ولم تكن لدى بيير أى فكرة عما كان جارياً حوله ، ولا عما تعنيه بأنها ترعى مصالحه ، ولكنه أحس أن هذا كله قدر مقدور وهكذا ينبغى أن يكون . ومن الدهليز دلفا إلى بهو ضعيف الإضاءة مجاور لحجرة استقبال الكونت . وكانت هذه الحجرة باردة ذات أثاث

فخم يعرفها بيير جيداً ، وتؤدى من الجهة الأخرى إلى سلم الزوار . ولكن حتى فى هذه الحجرة كان يوجد حمام نخال قائم وسط الأرضية وقد انسكب منه الماء على البساط . وهنا قابلهما خادم ومعه أحد خدم الكنيسة وفى يده مبخرة ، وكانا يمشيان على أطراف الأصابع ولم يلقيا إليهما بالا . ودخلا إلى حجرة الاستقبال التى تفضى إلى حديقة شتوية ، وهى حجرة يعرفها بيير جيداً أيضاً ، بنافذتيها الإيطاليتين ، وتمثالها النصفى الكبير ، وصورة الإمبراطورة كاترين . وكان نفس الأشخاص جالسين فى نفس الوضع تقريباً يتبادلون الهمسات فى حجرة الاستقبال . وكف الجميع عن الكلام ونظروا إلى أنا ميهايلفنا عندما دخلت بوجهها الشاحب المبلل بالدمع ، وإلى قامة بيير الضخمة البدينة وهو يتبعها منكس الرأس فى إذعان . وكانت سحنة أنا ميهايلفنا تدل على شعور بأن اللحظة الحرجة الحاسمة قد حانت ، ودخلت الحجرة بجرأة أشد من جرأتها فى الصباح ، وبيير بجوارها . فقد كانت تحس أنها أتت معها بالشخص الذى يطلبه المحتضر ، ولذا فهى واثقة من استقبالها ، وبنظرة سريعة تفحصت كل من فى الحجرة ، ولما لمحت الأب الروحى للكونت ، لم تنحن لهذا الكاهن بالضبط ، بل كأنما انكمشت قامتها ، وهرولت إليه وتلقت البركة من يده ، ثم من كاهن آخر بجواره ، وقالت للقس :

— الحمد لله أننا جئنا فى الوقت المناسب . فكلنا أقاربه ، وكلنا كنا مذعورين . وهذا الشاب ابن الكونت . وإنها حقاً للحظة رهيبة !

وبعد أن فرغت من هذه الكلمات اتجهت صوب الطبيب وقالت :

— عزيزى الدكتور . هذا ابن الكونت . فهل هناك أى أمل ؟

ولم يتكلم الطبيب ، بل هز كتفيه بسرعة وحول عنها عينيه . وبنفس الحركة هزت أنا ميهايلفنا كتفيها وحولت عينيها ، وكادت تغمضهما ، وتنهدت وتركت الطبيب إلى بيير وخاطبته باحترام واضح وحنان وأسى :

— ضع ثقتك فى رحمة الرب !

وأشارت له إلى أريكة كى يجلس فيها وينتظرها ، واتجهت بخطى غير مسموعة إلى الباب الذى كان الجميع ينظرون إليه . وبعد أن فتحته بلا صوت تقريباً ، اختفت خلفه . ولما كان بيير قد قرر الانقياد لمرشدته فقد اتجه إلى الأريكة التى أشارت له إليها ، ولاحظ بمجرد اختفاء أنا ميهايلفنا أن جميع أنظار من بالحجرة كانت مسلطة عليه بشىء أكثر من الفضول والتعاطف . ولاحظ أنهم جميعاً يتهامسون معاً ويرمقونه بما يشبه الرهبة والتملق وأبدوا له من الاحترام ما لم يبدوه له من قبل . ونهضت سيدة كانت تتحدث مع القس وعرضت عليه كرسيها . والتقط ياور القفاز الذى سقط من بيير ، وأعطاه إياه . وأراد بيير أن يجلس فى مكان آخر حتى لا يزعج السيدة ، وكان يريد أن يلتقط القفاز بنفسه وأن يدور حول الأطباء تجنباً لإزعاجهم مع أنهم لم يكونوا معترضين طريقه ، ولكنه شعر فجأة أن ذلك كله سيكون غير ملائم ، وأحس أنه الليلة سيمر بأحداث

ومراسم يتوقعها الجميع منه ، ولذا قبل خدمات الجميع . فتناول القفاز من الياور فى صمت ، وجلس فى مكان السيدة واضعاً يديه على ركبتيه كأنه تمثال مصرى قديم ، وقرر أن الأمور لابد أن تكون هكذا ما دام الجميع هكذا يريدون . ولكى لا تبدر منه بادرة خرقاء قرر ألا يتصرف من تلقاء نفسه ، بل بوحى من مرشدته .

ولم تمر دقيقتان حتى كان الأمير فاسيلى يدخل الحجرة مرتدياً سترة عليها ثلاثة نجوم ، رافع الرأس بشموخ . وبدا كأنه ازداد نحافة عما كان فى الصباح ، وكأن عينيه زادت اتساعاً . وأجال بصره فى الحجرة ورأى بيير فتوجه إليه ، وتناول يده (وهو شىء لم يصنعه معه من قبل) ومال بها إلى أسفل كأنه يريد أن يجرب قوته ، وقال :

— تشجع يا صديقى ! لقد طلب أن يراك ، وهذا حسن .

وكان سيواصل كلامه، ولكن بيير رأى من المناسب أن يسأل :

— كيف حال ...

وتردد ماذا يقول . أيقول الكونت ؟ فقد خجل أن يقول « أبى » .

— لقد أصيب بنوبة أخرى منذ نصف ساعة . تشجع يا صديقى.

وكان بيير فى حالة ارتباك عقلى شديد فلم يفقه تماماً معنى كلمة نوبة ، ونظر بارتباك إلى الأمير فاسيلى ، ثم بعد قليل فطن إلى معنى الكلمة . وقال الأمير فاسيلى بضع كلمات للوران وهو متجه على أطراف أصابعه نحو الباب . ولم يستطع هذه المشية بارتياح ، فكان جسمه يهتز بحركة غير رشيقة . وجاءت فى أثره الأميرة الكبرى ، ثم

الكهنة والشمامسة . واتجه بعض الخدم أيضاً إلى الباب . وسمعت من خلاله حركة ، وأخيراً خرجت آنا ميهايلفنا شاحبة تعدو ، ولمست ذراع بيير .

— مراحم الله لا نهاية لها ! إنها مراسم المسحة بالزيت المقدس ، ستبدأ الآن . فتعال !

ودخل بيير ، يمشى على البساط الوثير ، ولاحظ أن الياور والسيدة المجهولة وبعض الخدم تبعوه أيضاً إلى الداخل ، كأنما لم تعد هناك حاجة الآن إلى طلب الإذن لدخول هذه الحجرة .

— ٢٠ —

وكان بيير يعرف جيداً هذه الحجرة الكبيرة ، التى تقسمها الأعمدة وعقد مقوس ، وتغطى أرضها الأبسطة الفارسية . وجزء الحجرة الذى وراء الأعمدة على أحد جانبيه سرير مرتفع من خشب الماهوجانى له ستائر من الحرير ، وعلى الجانب الآخر خزانة ضخمة فوقها صور مقدسة ، وقد زينت وأضيئت بعشرات القناديل والشموع ، كالمعهود فى الكنائس فى أمسيات القداس . وتحت هذه الخزانة مباشرة مقعد طويل للعليل ، وفوق هذا المقعد على وسائد فى بياض الثلج حديثة الفرش ، ناضرة من أثر الكى ، ترقد قامة الكونت المهيبة وقد تغطى إلى وسطه بلحاف أخضر ناصع ، وقد تهدلت على جبينه العريض معرفة من الشعر الأشيب الغزير كمعرفة الأسد ، وارتسمت على وجهه الارستقراطى الوسيم الأحمر الضارب إلى الصفرة غضون

كثيرة . ولاحظ بيير أن أباه راقد تحت الصور المقدسة مباشرة .
وأن ذراعيه السمينتين الطويلتين مسترخيتان فوق اللحاف . وفى يده
اليمنى التى راحتها إلى أسفل رشقت شمعة وضعوها بين الإبهام والسبابة .
وأحد الخدم المسنين منحن فوق المقعد وهو ممسك بها حتى لا تسقط .

وحول المقعد وقف الكهنة بملابسهم الكهنوتية الاحتفالية اللامعة .
وشعرهم الطويل مسترخ فوق ألوانها الزاهية . وقد أوقدوا شموعاً
فى أيديهم ، وراحوا يقومون بخدمة القداس بوقار متعمد . ومن
خلفهم قليلا وقفت أميرتان شابتان ومنديليهما على عيونهما ، وأمامهما
وقفت الأميرة الكبرى كاتيش فى سيماها التى تفيض بالحقد واللدد .
ولم تحول عينيها لحظة واحدة عن الصور المقدسة ، كأنها تعلن للجميع
أنها لا تضمن تصرفاتها لو أنها نظرت فيما حولها . وعند الباب وقفت
أنا ميهايلفنا وعلى محياها ارتسم الأسى الوديع والصفح ، وإلى جوارها
تلك السيدة المجهولة . وكان الأمير فاسيلى واقفاً بجوار مقعد العليل .
فى الناحية الأخرى من الباب ، وكان قد جذب إليه كرسياً منقوشاً
مبطناً بالمخمل ، واتكأ على ظهره بيسراه ، التى كان يحمل فيها شمعة .
راح بيمناه يرسم الصليب على جبهته . أما محياه فكان يعبر عن
التقوى الهادئة والإذعان لمشيئة الله . وكأن وجهه يقول لمن يراه :

– إن كنت لا تفهم مثل هذه المشاعر ، فالذنب ذنبك !

ومن ورائه وقف الياور والأطباء والخدم الذكور . وقد افترق
الرجال عن النساء كما فى قداس الكنيسة الروسية . وكان الجميع

يرسمون الصليب ، ولا يسمع إلا صوت قراءة القداس الإلهى ،
والإنشاد الخافت الأجش . وفى لحظات الصمت كانت تسمع
التنهدات وحركات تململ الأقدام . وبحركة ذات معنى تدل على أنها
تعرف ما هى صانعة ، عبرت أنا ميهايلفنا الحجرة إلى بيير وأعطته
شمعة ، فأشعلها واستغرق فى مراقبة الناس من حوله ، وفى شرود راح
يرسم الصليب بنفس اليد التى فيها الشمعة . وكانت الأميرة الصغرى
صوفى الوردية اللون الضاحكة ذات الشامة تنظر إليه ، وابتسمت ،
وأخفت وجهها فى منديلها ، وظلت مدة طويلة من غير أن تكشف
عنه . ولكنها عندما كشفت عنه ونظرت إلى بيير مرة أخرى ضحكت .
والظاهر أنه لم يكن فى وسعها أن تنظر إليه من غير أن تضحك ،
ولكنها لم تستطع مقاومة النظر إليه . ولكى تبتعد عن هذه الغواية
انتقلت وتوارت خلف أحد الأعمدة . وفى وسط القداس توقفت
أصوات الكهنة فجأة ، وهمس بعضهم لبعض . ونهض الخادم المسن
الذى كان ممسكاً بشمعة العليل ونظر إلى السيدات . فتقدمت
أنا ميهايلفنا وانحنت فوق العليل . وأومأت من وراء ظهرها إلى لوران .
وكان الطبيب الفرنسى متكئاً إلى أحد الأعمدة بدون شمعة ، فى تهذيب
يليق برجل أجنبى يبدى للناس أنه برغم اختلاف الديانة يقدر هيبة
المراسم ، بل ويقرها . وبكل حيوية شاب فى عنفوانه مشى بخطوات
غير مسموعة إلى العليل ، ورفعت أصابعه البيضاء الرقيقة يده الخالية
من الشمعة من فوق اللحاف ، وأدار وجهه وراح يعد النبض فى انتباه

تام . وقدموا للعليل شراباً ما ، ثم عاد الجميع إلى أماكنهم ، واتصل ما كان قد انقطع من القداس . وفى هذه الفترة لاحظ بيير أن الأمير فاسيلى ابتعد عن ظهر كرسيه ، ولكنه لم يذهب إلى العليل ، بل مر به ولحق بالأميرة الكبرى ، ثم ذهب الاثنان إلى الطرف الأقصى من الحجرة ، إلى السرير العالى تحت الكلة الحريرية . وعندما ابتعدا عن السرير اختفت الأميرة والأمير معاً من الباب البعيد ، ولكنهما عادا قبل نهاية القداس إلى مكانهما السابق . ولم يلق بيير باله إلى ما حدث ، وهو يحسب أن كل ما رآه يحدث حوله فى تلك الليلة كان جوهرياً ، لا بد من حدوثه !

وتوقف الإنشاد الكنسى ، وسمع صوت كبير الكهنة يهنئ فى احترام العليل بتلقيه هذا السر المقدس . وكان المحتضر راقداً بلاحراك كذى قبل ، والكل يتحركون حوله ويتهامسون . ولكن همس أنا ميهايلفنا ارتفع فوق كل همس ، وسمعها بيير تقول : إن المريض ينبغى نقله الآن إلى فراشه بلا شك . فوضعه هكذا مستحيل . وكان الأطباء والأميرات والخدم محيطين بالعليل فلم يستطع بيير أن يرى وجهه ، بشعر عنقه الأشيب الذى لم يرفع عنه بصره طوال القداس ، مع أنه كان فى الوقت نفسه يرقب الآخرين أيضاً . وأدرك من حركات من حوله أنهم يحاولون تحريك العليل ونقله . وسمع أحد الخدم يهمس فى ذعر :

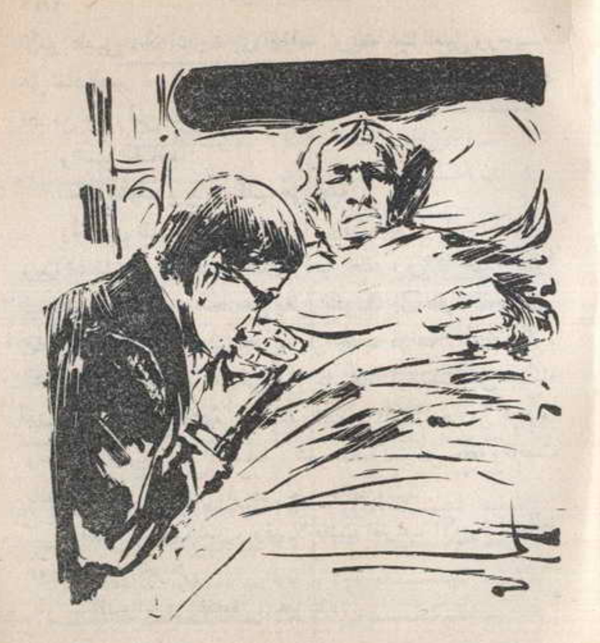
— امسك ذراعى . إنك ستوقعه هكذا . اخفضه قليلا .. ليأت آخر إلى هذه الناحية ...

وكانت الأنفاس اللاهثة والخطوات المتعجلة تشى بالثقل الهائل الذى ينوءون به . وعندما مروا به — ومن بينهم أنا ميهايلفنا — لمح الشاب من فوق الأعناق والظهور الصدر العريض المكشوف ، والرأس الأشيب الضخم ، وكتفيه العريضتين وهو محمول من تحت إبطيه . ولم يكن دنو لحظة الموت قد شوه جمال وجهه وبروز عظام وجنتيه واتساع جبينه وفمه الشهوانى الجميل وعينيه الباردتين المتغطرستين . فكل هذا كان كما يعهده بيير ورآه آخر مرة منذ ثلاثة أشهر ، عندما أرسله أبوه إلى بطرسبرج . ولكن عينيه الآن لا تميزان شيئاً مما تقعان عليه ، وهو يترنح ولا حيلة له مع خطوات حامليه المتأرجحة .

وشغل الجمع بضع دقائق حول السرير العالى ، ثم تفرق من حملوا الكونت . ولمست أنا ميهايلفنا ذراع بيير قائلة :

— تقدم !

وتقدم معها من الفراش حيث سجى الرجل فى وضع احتفالى طبقاً للطقوس المقدسة التى أديت له . وكان رأسه مرتفعاً فوق الوسائد ، ويداه فوق اللحاف الحريرى الأخضر والراحتان إلى أسفل . ولما أقبل بيير نظر إليه الكونت نظرة عميقة لا يستطيع أحد سبر أغوارها وفهم مراميها . فإما أنها لم تكن تعنى شيئاً ، أو كانت تعنى



ومد عنقه حتى لا يتعثر باللحاف وقبل اليد الضخمة ..

الكثير . ووقف بيير وهو لا يدرى ماذا يصنع ، ونظر بتساؤل إلى مرشدته ، فرمقته بنظرة سريعة وأومأت إلى يد العليل ، وبشفتيها رسمت شبح قبلة ، فصدع بيير بما أمرته ، ومد عنقه حتى لا يتعثر باللحاف وقبل اليد الضخمة . ولم يكن فى هذه اليد أدنى حركة ولا فى أى عضلة بوجه الكونت . ومرة أخرى نظر بيير بتساؤل إلى أنا ميهايلفنا ليعرف ماذا عليه أن يفعل الآن . فنظرت أنا ميهايلفنا إلى المقعد الوثير الذى بجوار الفراش . فأطاع بيير ، واتجه إليه وجلس فيه ، ونظراته تسألها أتراه أحسن التصرف ؟ فأومأت برأسها مؤيدة ، ومرة أخرى عاد بيير إلى وضع التمثال الفرعونى ، وهو شاعر أن جسمه الضخم يحتل حيزاً كبيراً ، لذا يحاول الانكماش فى مكانه ما استطاع إلى ذلك سبيلا . ونظر إلى الكونت ، فوجد نظرات الكونت ما زالت مركزة على الموضع الذى كان فيه وجه بيير منذ لحظة وهو واقف أمامه . وكان مسلك أنا ميهايلفنا يشى بإحساسها بخطورة هذا اللقاء الأخير بين الوالد والابن . ودام هذا نحو دقيقتين ، خيل إلى بيير أنهما ساعة . وفجأة سرت رجفة فى عضلات الكونت الغليظة وتجاعيد وجهه . واشتدت الرجفة ، والتوى الفم الجميل ، (وفى هذه اللحظة فقط أدرك بيير أن الموت صار قريباً جداً من أبيه) ، ومن الفم الملتوى صدر صوت أجش مكتوم . ونظرت أنا ميهايلفنا بكل انتباه إلى فم العليل المحتضر ، وحاولت أن تخمن ما يريد قوله ، فأشارت أولا إلى بيير ، ثم إلى شراب ، ثم فى همس ذكرت اسم

الأمير فاسيلى ، ثم أشارت إلى اللحاف . ونمت عينا العليل ووجهه على نفاد الصبر ، وبذل جهداً كى ينظر إلى الخادم ، الذى لم يتحرك قط من عند رأس السرير .

وهمس الخادم :

ـ إن فخامته يريد أن يقلب على جنبه .

وأخذ فى تقليب جسده الثقيل ، ووقف بيير ليساعد الخادم . وبينما هما يقلبانه ، تراخت إحدى ذراعيه خلفه ، وبذل جهداً كبيراً ليجذبها . ولا يدرى أحد هل فطن الكونت إلى نظرة الذعر التى علت وجه بيير وهو يرى عجز أبيه عن جذب ذراعه ، أم أن فكرة أخرى جالت بخاطره ، ولكن على كل حال ارتسمت على محياه ابتسامة لا تتفق مع ملامحه . ابتسامة واهنة ، كأنها تسخر من عجزه. وعندما رأى بيير هذه الابتسامة ، شعر بغصة تعترض حلقه وفاضت بالدمع عيناه . واستدار المريض نحو الحائط وتنهد .

وقالت أنا ميهايلفنا ، وقد لاحظت اقتراب الأميرة لتأخذ دورها بجوار الفراش .

ـ لقد راح فى إغفاءة ... هيا بنا ...

فخرج معها بيير .

انتهى الجزء الأول من (الحرب والسلام)

ويليه الجزء الثانى



إصدار جديد

هذه الملحمة الخالدة !

عزيزى القارئ ..

يسعدنى أن أقدم لك اليوم الجزء الأول من أول ترجمة «مصرية» كاملة أمينة لملحمة «تولستوى» الجبارة (الحرب والسلام)، وهى الرواية الرومانسية التاريخية التى كتبها «تولستوى» ونشرها مسلسلة خلال أربع سنوات كاملة (١٨٦٥-١٨٦٩)، قبل أن تجمع بعد ذلك فى كتاب بل مجلد ضخم يتألف من نحو ١٥٠٠ صفحة. وتدور حوادث الرواية خلال الحقبة من سنة ١٨٠٥ إلى سنة ١٨١٣، وهى الحقبة التى تلألأ فيها نجم «نابليون بونابرت»، فبلغ أقصى سماوات مجده، قبل أن يهوى بعدها من حالق ويأفل نجمه فيؤسر ثم يموت منفيا فى جزيرة (سانت هيلانة). وقد صور «تولستوى» فى روايته هذه الأحداث التى مرت بوطنه روسيا خلال فترة غزو نابليون الفاشل للرقعة الفسيحة التى تشغلها روسيا من خريطة أوربا وآسيا، حتى وصل بجيشه إلى أبواب العاصمة (موسكو)، لكن صقيع الشتاء الروسى الرهيب بدد حلمه بدخولها وقضى على زهرة الشباب الفرنسى فمات عشرات الألوف منهم تحت الجليد خلال تلك الحملة المشئومة.

والآن أتركك لتستمتع بقراءة النص الكامل لهذه التحفة الخالدة ابتداء من هذا الجزء الأول منها، الذى تليه بقية الأجزاء تباعا بإذن الله.

حلمى مراد



١٠٠ قرش